

سعيد عقل
شعره والنثر

المجلد الثالث
لبنان ان حكى

نوبليس

سعيد عقل

شعره والنشر

المجلد الثالث

لبنان ان حكى

نوبليس

DL

للمؤلف

- بنت يفتاح الطبعة الأولى ١٩٣٥ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- قدموس الطبعة الأولى ١٩٣٧ — الطبعة الرابعة ١٩٩١
- المجدلية الطبعة الأولى ١٩٤٤ — الطبعة الثالثة ١٩٩١
- رندلي الطبعة الأولى ١٩٥٠ — الطبعة الخامسة ١٩٩١
- غد النخبة الطبعة الأولى ١٩٥٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة)
- أجل منك لا الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مصححة ومزيد عليها)
- لبنان ان حكي الطبعة الأولى ١٩٦٠ — الطبعة السادسة ١٩٩١
- كأس لخمير الطبعة الأولى ١٩٦١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- اجراس الياسمين الطبعة الأولى ١٩٧١ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كتاب الورد الطبعة الأولى ١٩٧٢ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- قصائد من دفترها الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- دلزي الطبعة الأولى ١٩٧٣ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- كل الأعمدة الطبعة الأولى ١٩٧٤ — الطبعة الثانية ١٩٩١
(مزيد عليها)
- الوثيقة التبادعية الطبعة الأولى ١٩٧٦ — الطبعة الثانية ١٩٩١
- خماسيات الصبا الطبعة الأولى ١٩٩١

المجلد الثالث

لبَنان ان حَكي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى ١٩٦٠

الطبعة السادسة ١٩٩١

لَبُنَّانِ اَن حَكِي

هنا تحت كل تراب
مفاتيح مجد

هنا الله شرع بابه
وضمك ضمة وجد

هنا جبل لا الأساطير أشهى
ولا الشمس أبهى

أحايين يُغري سهولة
بقله وورد

أحايين يلعب يُغري البطولة
برمية نرد

ص.ع.

سياحةً في لبنان — لبنان الحضارة ! — قد تكون أجمل
شيء يُعطاه الانسان.

تراني أباغ ؟

لسوف يحكم اولئك الذين معنا سيسافرون.

في جزء من الوقت نزر، دقائق لا تزيد، سنجتاز كل
مرة كرات سنين، حياة عظيم، حدثا توقف عنده مصير
البشر.

الادب ؟ انه لَحَبَسَ الدهر في عبارة، جرعة خمر، جرعة
واحدة، وتكون سكرة العقل.

على أننا لن نرور كل شيء.

كل شيء، هنا، اكبر من بحر، اكبر من دهر.

مجلدات ضخمة من التاريخ ستظل تنتظر من يؤلفها.
وهذه الرقعة من الشيطان والربى انما اقيمت عليها
مؤسسات لا يثمن فضلها. كانت الأولى وكأنما في البدء
كانت. من ارض هي، واحياناً من افرادٍ لهت اصابعهم
بالمعمور.

هنا وُلد أو قال أو عمل نفر من آلهة المعرفة.

التطواف في هذه الصخور أو تلك التلال ليشيلن بك
إلى النجوم أو يملكك الدنيا في لحظات.

تحت كل حصاة من الثرى الذي تدوس كل يوم، قصة
مجد تُحكى. انها فصل من تاريخ الحب والعطاء، أو هي
بعض الحضارة.

من يعرفها ؟ من يعرف ان يقصّها ؟ اثنان... ثلاثة...
أربعة على الأكثر... اما الأربعة ملايين من اللبنانيين فيمرون،
كل آن، بجمال لا يعدله جمال ولا يدركون.

أواه ؟ ترى سنعطى يوماً ان نحكي للزائر حكاياتنا
الفريدة ؟

إنها حكايات تهّم بني الأرض جميعاً، وانما طابعها
محض انساني، وتهم اصحابها ايضاً لأنها تعود بهم إلى أيام
عجب كانوا في اثنائها يقولون هذا الذي عاد وسُمي
الانسان.

رحلتنا من اين نبدأها ؟

هنا ما نحن على الطرقات. هنا نحن في الفكر. احرار
إذن. فلنَتَقَلَّ على هوانا.

قَصْرُهُ قَبْلُ أَنْ يَكُونَ

هذا نحن، صدفة، في صيدون.

ما لنا ولما يعرفه عنها أيُّ الناس ؟ كأن نقول: عدد
سكان صيدون كذا من الألوف، وانها كمرافئنا القديمة جميعاً
قائمة على لسان امامه جُزَيْرِيَّة، وعند مستهل الصيف
تروح، لوفرة بسايتها، تضطرم برائحة زهر الليمون، حتى
ليخيل اليك انك في جنائن عشتروت.

لا ولن نفتح على جلديه تاريخها البطولي — ومن
يدري فقد نعود إلى صفحات منه تأخذ بالألباب ! — ولا
نواجه دورها في صناعة الجمال والذوق يوم كانت

مخازنها اشبه شيئاً بما هي اليوم مخازن باريس: يقصدها،
على قول يار هوباك، من اربعة اقطار العالم حسان الطبقة
المترفة، بناتُ القادة والملوك، يتصيغن أو يشترين جهاز
عرس. لا، ولترك التعرف إلى صيدون تعرفاً منهجياً جافاً
مكتفين بان نزيح ستاراً عن مشهد.

هل سمعت بفيثاغورس ؟

كيف لا ؟ لقد تعرفت اليه منذ عهدك الاول بمقعد
المدرسة، في التيوريم المنسوب اليه في الهندسة.

ويرافقك طيلة حياتك ان كنت رجل معرفة. فهو احد
عليّة العقول في جميع الأزمنة. يحترمه افلاطون كما ولا
احد، ويتحدث عنه ارسطو باجلال. فيلسوف، وعالم
رياضيات وفلك، وموسيقي، وكاهن، ومكتشف، وسياسي.
كل الديانات، التي قامت بعده، مدينة له. ومدين له
كذلك كل مذهب في الفكر، في المنقبية، او في صناعة
الجمال.

كان والدّه واحداً من كبار الجوهرين في ساموس،
احدى جزر الإيونيه، الأرخبيل الأغريقي الجميل، وامه
الحسنة برتنيس. ويروى أنه، قبيل عرسهما الفخم، استطلعا
فألهما لدى كاهنة « دلف » فقالت انه سيلد لهما « ولد

يكون خيراً على البشر جميعاً، وفي الازمنة جميعاً»،
شريطة ان لا يعرف الزوج عروسته الا في اجمل المدن،
حاضرة الذوق والفكر، عاصمة العالم. وانفرجت شفتا
الكاهنة عن اسم المدينة، قالت: صيدون !

شهر عسل رائع قضاه العروسان في المتوسط، البحر
الذي كانت تزرعه، فخمة انيقة، سفنُ الصيادنة الشجعان.
وامام صيدون نُحِّلَ اليهما، وقد ولجا أحد مرافقها
الاربعة انهما شخصان مسحوران.

كانت صيدونُ باقتين من معاهد ودارات بيض: الواحدة
مرمية في البحر، والاخرى معلقة على الشاطئ. وكان لبنان
بعديد شجره المخروطي العطر اشبه باطار من الخضرة
يحيط بالباقتين.

ويقال إن العروس، وقد ذهلت امام مفاتن المدينة، لم
تنتظر ان ترتاح من عناء البحر لتستمع برؤية صروح كانت
زيارتها موضوع خيلاء الشعوب. في اليوم نفسه، دارت
على المحلات الكبيرة، اشترت لها اربعة فساتين وخاتمين
وعقداً من اللؤلؤ، وحضرت في « المسرح الكبير » تمثيلية
على « مصرع ادونيس »، وزارت معبد اشمون على الرابية،
واستحمت في البحر ضيفة على بنت الرئيس الثاني

لـ « مجلس الاعيان »، ورقصت في علبة ليلية محفورة في الصخر، وفي اخريات الليل، قبل ان تودع النجوم، استمتعت بالنشيد الثامن من « الاوديسة » يلقيه فنان قدم له بنبذة عن هوميروس.

عندما استيقظت برتنيس بعد ظهر اليوم التالي من نوم طويل طويل، راحت تسائل عريسها: « ترى في حلم نحن ؟ » وازافت متخابثة: « ما تقول لو نسمي الولد صيدون ؟ »

واستمر الحلم اشهرأ. الا انها، منذ الشهر السابع، اخذت تلازم دارة كانت قد استأجرتها في « الجنائن المعلقة »، وهي حيٌ على المرتفعات يسكنه اثرياء الصيادنة والذين يرجعون إلى المدينة من مستعمراتها النائية. ويولد لهما العظيم الذي سيسمي فيثاغورس.

وتكون أعمال الزوج قد ارغمته على استعجال العودة إلى اليونان. اما برتنيس فتبقى والطفل في صيدون، تنتظر ان يتم سنته الاولى لتحج به — وفاءً لنذر — إلى « افقا » حاضرة الدين والثقافة. هناك تغطس رأسه في الماء المقدس وتزور به « ندوة الحكماء » — تماماً كما ستفعل زينوبيا يوماً — ومن فم كل منهم تلتقط نصيحة ستهمسها في اذن

الولد متى كبر، وتعددهم بأنه، متى اتم علومه في وطن
والديه، سيعود إلى لبنان يحصل علومه العليا.

في العقد الثالث من عمره سيؤم فيثاغورس بلداناً
مشرقية شتى، منها لبنان. سوى ان برتنيس، وتكون قد
اصبحت امه وتلميذته معاً، تظل يطيب لها أن تستوضحه ما
درس خاصة في لبنان. فيما يروح هو، في ساعات ارقه،
يسألها اغنية طالما هدهدته بها هناك:

« لبناني انت، يا بني،

« في صيدون بالذات، في سفح جبل الطيوب، وُلدت

« لبناني، انت يا بني،

« ذاك، ولو حقد عليّ الاغارقة،

« لقبٌ به يفخر هوميروس

« أبو الشعراء ».

مأساة فيناغورس

نحن في الدامور.

بلدة، بين البقية من بساتين التوت وتحت دير القديس يوسف، شبه بعنقود عنب، بلوريّ ضخّم، تركه المارد على سفح جبل.

يطيب لبعضهم أن يردّ اسم الدامور إلى داموراس، والد ملكرت، إله البطولة. أما فرنجة العصور الوسطى فقد أعجبوا بالاسم، لما له في الفرنسية من وشائج مع كلمة «حب».

ولكن شيخاً طاعناً في السن، ينتمي الى اقدم عائلات

الدامور، كان، إلى ما قبيل وفاته، يتبسم لهذه الأقوال لأنها اقلال من شأن البلدة العظمى.
ويسألونه تفسيره هو، فيسكت.

قصة موجهة تلك التي سنروي لأنها على نهاية
فيثاغورس، على مأساة فيثاغورس. قصة كتاب وائاء من
الدموع حملتهما إلى لبنان بنته الشابة.
عندما كان فيثاغورس يغادر لبنان، وهو على ذراعي امه،
قاصداً إلى وطن أبيه، ودّعت برتنيس هذه الشواطئ بقولها:
— لكم أود لو تبقى في لبنان، الهادي الجميل !

ولكن القدر شاء غير ما شاءت.
فيثاغورس الآن في قصرهم في جزيرة ساموس يُهيئ
له والده تعليماً لن يعطاه ابن غني سواه. منذ السادسة
كان له ثمانية مدرّسين. ومنذ العشرين كان قد حصل
على هرمودماس في ساموس، وعلى بريسيدس في سيروس،
وعلى طاليس وانكسيمندر في ملّة.

« كانت نفسه تستمع إلى ثلاث: الأرض التي تقول:
« قدر »، والسماء التي تهتف: « عناية »، والبشرية التي
تصرخ موجهة: « جنون ». وانه هنا بينهم، فمن من الثلاث
يصدق ؟ »

وتقرأ أمه الاضطراب في عينيه فترده بالفكر إلى خلف
البحر. فيقول لها:

— صفي لي لبنان.

فتجهد محاولة نقل الكواكب إلى الكلمة، ونقل عظمة
النفوس.

فيقول فيثاغورس:

— يلخص حديثك، يا أمّاه، بكلمة لا تزدوج:
« الحرية ».

فتجيب:

— جو لبنان سمّه بكلمة جديدة. « الحرية » ان شئت.
ولكن حمل الكلمة اجمل المعاني. أن تكون شرط الحياة،
شرط كل شرط.

وفجأة يدرك فيثاغورس انه، اذ تلفظ بكلمة « حرية »،
اطلق خاطرة ستبقى على الدهر. ويقول: « بلى، وحدها
الحرية تؤلف بين قدر الارض وعناية السماء وجنون البشر.
الحرية ؟ إنها إرادة التغير ».

ويسأل:

— حقاً في لبنان وحده حرّية ؟

وبعد أيام يلقي بنفسه في أول مركب مسافر إلى الشرق.

— اكتب إليّ، تقول له برتنيس عند الوداع. من « الجنائن المعلقة ». اكتب إليّ.

ويتعرف فيثاغورس إلى صيدون فيحبها كما ولا شيء، لا لأنها مسقط رأسه بل للتوجيه العالي الذي توحيه إلى عقله، ولأنها ارض لبنان، مفرع العلماء ونبع الحكمة. ومنها يزور افقا، فجيل، أقدم مدن العالم، فمنفيس، فثيبة، فبابل.

ولكنه، في الإياب، يتساءل: اين يا ترى ينتهي به المطاف ؟ اين يجعل منطلق تعليمه ؟

في لبنان، يقول ؟ انه أهدأ بقاع المعرفة. ولكنه قد لا يكون في حاجة إلى فيثاغورس. فليقصد إلى « دلف »، عاصمة اليونان الروحية. ان ابولون، إله المعرفة، قد شحب وجهه واصبح بينه وبين الاغارقة ضباب. كيف يحق له أن يفضب عليهم ؟ تراه نسي جزيرتهم « دلوس »، تلك التي كانت تائهة في البحر، كيف أمرت بان تهدأ فترة من الزمن ريثما تضع « لاتون » ولديها « أبولون » و « أرتيميس » ؟

وتردّه هذه الذكريات إلى أن العناصر نفسها قدّست
الأم. فلماذا لا ينزل، هو، على ارادة امه ويعمل في لبنان ؟
سوى أن مصيره يشاؤه ان يعمل في اليونان. وتكون
شهرة قد سبقته إلى « دلف ». وفي « دلف » يلتقي
الكاهنة تيوكليا. ان لها عبقرية اخذ لا توصف. فما هي ان
تحضر دروسه حتى يشعر بانه اعطى « دلف » كل ما يريد
وان في مكتبته ان يترك. لكن تيوكليا تموت من حسرة
الفرقة.

هو الآن في كروتون. يحدث مقدمه شبه ثورة.
صعبة كانت تعاليمه. ولكنه كان يغلفها بعذوبة ساحرة.
وكانت حكمته تُعدي: جمال إشارته، نبْل قامته، عذوبة
المحيّا وحتى لباسه كلّها كلّها كانت تكمل عمل السحر.
النسوة يشبّهنه بزوش، والفتيان بأبولون، ويروح الجمهور
من اجله يعشق الفضيلة ويسكر بالحق.

وفي كروتون استكمل خلق نظامه الفكري. لم يُبقِ على
شيء إلا تدخل في شأنه: أقام « مجلس علوم » فوق
« مجلس الحاضرة »، قصد ان يجعلها دوما متطورة، دوما
متصلة بالتقدم. بذّر معرفة الفلك في العقول، تلك التي
على جُوس لانهاياتها يرتفع الانسان إلى مصادقة العظمة.

رفع من قيمة كل شيء: علّم انه ينبغي الاهتمام بالمشية
الانيقة، وانه ينبغي اعتبار الصداقة فوق الحب، « الصداقة،
قال، هي شعر الحياة، وما سواها نثر ». وعلم انه ينبغي
نحت الضحكة بلوريةً على الافواه. « بضحكة، قال، تغيّر
وجه الارض ».

هو لأوّل مرة في التاريخ « نظام أخوة عارفة »، فيه من
المدرسة والرهينة والعائلة. الناس سعداء في كروتون. كلهم
شعراء حياتهم. واذا يرتدّ احدهم ليعود إلى « الحياة
التافهة » يقيمون له بينهم قبراً، ويرثيه المعلم بقوله: « بلى،
فلنبكه فقد مات أكثر من الأموات ».

وكانت أمّه التي احبته كما ولا أحد، توحى اليه بأن
الدنيا امرأة. « المجد، كان يقول، المجد للمرأة في الارض
وفي السماء. انها لتجعلنا نفقه معنى المرأة العظمى التي
تدعى الطبيعة ».

ويقول: « تُعرف فتقدر، تُحب فتبدع، تكون فتشيعُ
حقيقةً وجمالاً. والحب هو ان تنسى ما انت ».

وكان ينسى نفسه ولا ينسى وصيّة امه: « وددتُك لو
تعمل في لبنان ».

وبقيَ يقلق لهذا الهاتف حتى أحبّ.

بين النسوة اللواتي كن يتابعن دروسه كانت ثمة واحدة
شفافة حسن، بيضاء بيضاء، تُدعى تيانو.

تيانو هذه كانت تحبه ولا تدري.

وفيما هو، ذات يوم، في المدرسة تحت رواق
بروزربين، أقبلت اليه تيانو منفردة وجئت امامه. ودون ان
ترفع جبينها سأله هل يقدر ان ينقذها من حب يُذيب
الجسد والروح. فسألها: « وما اسم من تحبين ؟ » فقالت:
« فيثاغورس ». فلم يُجب بكلمة. وكان صمته مشجعاً.
عندئذ رفعت اليه رأسها الجميل تقدم نفسها كزهرة.

كانت تيانو الزوجة التي لم يعرف التاريخ اجمل أو
أشرف.

مرة سألتها امرأة: « بعد كم يوماً من لقاء الرجل تعود
المرأة طاهرة ؟ » فاجابت: « ان كان رجلها طهرت للحال
والا فلن يصير ذلك ابداً ».

وولد لفيثاغورس صبيان: ارمنست وتلوغس وبنت
وحيدة: دامو.

كانت دامو اعمق من يفقه تعاليم فيثاغورس، وكانت
لوفرة حسنها كطيف، يسميها « الجميلة الجميلة » ولا يردّ
لها طلباً.

وذاث يوم سألته لهيفة:

— متى، يا فيثاغورس، تعمل في وطن فيثاغورس ؟
وتجهّم وجهه لصوت التي كانت قد ماتت يعود مُلِحّاً
في فم الحفيدة.

ومنذ ذلك اليوم بدأ يعرف البكاء.

وفي أسطورة شاعت باكرأ، انهم، لشدة تعلقهم به،
كانوا يحفظون دموعه في اناء.

بقيت السعادة تخيم على بيت فيثاغورس ونظامه ودولته
حتى كانت الثورة.

الغيرة من نجاح نظام مثالي، طُبّق في العالم لأول مرة
— وربما لآخر مرة — اخذت تتأكل بعضهم، فهاجموا بيتاً
كان يجتمع فيه، برئاسة المعلم، ابرز أعضاء المدرسة،
واشعلوا فيه النار.

مدة قرون بقيت هذه أو تلك من مُدُن العالم تؤكد ان
فيثاغورس نجا، وانها انما كان لها فخرُ ايوائه. والاكثرية
على انه مات محترقاً وانه لم يبق من عائلته سوى الجميلة
الجميلة دامو.

وذاث يوم، فيما كانت تستقلّ مركباً مسافراً إلى
الشرق، عرفها ربّانهُ فقال لها:

— أعطيك ثمن الذي تخفين على صدرك كل ما املك
واسطولاً صغيراً من ثماني سفن.

فقلت:

— الذي على صدري هو كصاحبه.

فاكمل:

— لا يباع !

وللتو عرفت دامو ان الربان فيشاغوري.

وعلى مقربة من لبنان، تقاذفت المركب عاصفة زعرع،
فشطط عند مصب نهر.

كانت دامو قد قصدت إلى لبنان، إنفاذاً لوصية والدها،
لعلها تستأنف تعليمه، هذه المرة، في مسقط رأسه. فقيم
مدرسةً ونظاماً أشبه بنظام كروتون. الا انها لم تتحمل
العاصفة ! وما هي ان نُقلت إلى البر حتى كانت جثة
هامدة. وابي الفيشاغوري الربان إلا ان يحمل بنت المعلم
على ذراعيه ويدفنها، مع كتاب وائاء من الدموع كانا
مشدودين إلى صدرها، فوق راية مشرقة على البحر سماها
دامو. وغرّس فوق القبر غرسةً لعلها، وهي السنديانة
الوحيدة بين سائر الشجر، تبقى العلامة الفارقة يهتدي بها،
إلى قبر بنت المعلم، الوف الالوف من اتباعه.

ويقال إنه في العام التالي زار الربّان قبر الجميلة الجميلة. فاذا غرسة السنديان قد كبرت كما لو كان قد انقضى عليها مئآت السنين، وشهد في ظلّها مدرسة أقيمت في العراء ومعلّمًا يرتدي لباساً أبيض، يدير الدرس، تساعدته بنته الصبية. فتقدم وقد ذهل لخاطرٍ مرّ ياله وهمسٌ باذن الصبية:

— دامو ؟!

فاسكتته بقولها:

— أصيخ: المعلّم يتكلم.

والتفت فاذا المعلّم قد سكت من تعب. اما شجرة السنديان، تلك التي كانت شروشها تتغذى بدم بنت فيثاغورس وبكتابه وبالدموع التي ذرفها لانه لم يعلم في مسقط رأسه، فقد راحت تخفف من عنائه وتكمل الدرس...

الزحف للأبطال

وراء العطر ؟ أكيداً وراء العطر زهرة.

ولا بد أن يكون آباءنا عملوا لزحلة العجب حتى بات
ذكرها إلى هذا الحد محبباً.

ولكن هناك من عمل لزحلة أكثر.
الله.

مذها بهذا النهر، شريطة من لجين ولا أجمل، تترقرق
وسط الشجر الملتف. فاستطاب الرومان على تلك
الضفاف صيد النمر. وطارت لها شهرة إلى اقاصي

الامبراطورية، فقصدوها من هليوبوليس وبيريت وربما من
ابعد، وقنصوا على حواشيها، ورقصوا، وقصفوا.

بلى كان قد أهرق هنا خمر وثني كثير قبل ان يشرب
الزحلّي العرق الذي سيسميّه ايضاً « دموع العذراء ».

وعندما التقت كليوبترا حبيبها انطونيوس في لبنان، تراهما،
هما ايضاً، قَضِيًّا بضعةً من ايام الصبا في تلك الروضة
الغناء ؟

من يدري ؟

وفي كتاب قديم ان كليوبترا نظمت في انطونيوس، وهما
في بعض ربوع لبنان، قصيدة فيها تقول:

عندما كان اطلس،

اطلس اخو بروميثيوس،

ذاك الذي، لاشتراكه في القتال

بين جابرة وآلهة،

كان قد استحق غضب زوش، فحكم عليه بأن يحمل على

منكبيه قبة السماء،

عندما كان ابو الثوار

يختال بحمله المكوكب الجميل،

ترأيت له، يا حبيبي انطونيوس،

قبل ان تولد بكرات الكرات من السنين،

ترأيت له بهيكلك العملاقى الانيق.
وكان ؟

كان أن ضاع اطلس، كمن أخذ بحميا الكأس،
فزحلت السماء قليلا عن كتفه.
وانهار منها على الارض
بعض من تراب !... .

هذا المكان الذي من زحلة السماء،
هو هو الذي جمعنا عليه، اليوم،
قبلة تميت وتحى،
وتبدأ لا لانتها .

كان، اذن ، قد استفرس نبلاء من الرومان كثر، على
ضفتي هذا النهر، قبل ان نزل الزحلي الاول، منذ نحو
ثلاثمئة عام.

وراح يني بيتاً.

— في « وادي النمورة » ستسكن، سألته حطابة
مستفسرة ؟ انه زحلة من سماء تمتنع على العاديين من
الناس.

فقال:

— سأسكن في التي تمتنع على العاديين. من الناس.
— ينبغي ان تكون مفتول الزند، سديداً نشابك.

— وولداي كذلك. اما بنتي الصبية فترمي لا تُخطئ.
وهي طاهرة كقلب الصبح، ان رآها النمر غضّ عينيه.

وقالت الحطّابة:

— إذن، ستطردون التّمورة من الوادي ؟

— ومن غيره كذلك. وبدلاً منها سنُسكِنه الاسود.

سنوات، سنواتٌ عديدة تنقضي.

واذا الضيفّة الغربية من النهر مزروعةٌ بالبيوت: من لبنٍ
معظمها، وبعضها من حجر.

ثم طفقت الطرايشُ الحمر تعلو هنا وهناك.

ويقال إن الحطّابة عاشت مئةً واربعة أعوام. وكانت،
كلما التقت امرأة بعينها، تسألها لهيفة:

— هذي أنتِ ؟ قال لي أبوك، يوم أسّس البلدة وكنت
بعُد صغيرة: « إن لي بنتاً صبية ترمي لا تُخطئ. وهي
طاهرة كقلب الصبح ان رآها النمر غضّ عينيه ».

فتردُّ هذه:

— والآن ؟ هل كبرتُ كثيراً ؟ وهل ذوي طهري الذي

كقلب الصبح ؟

فتجيب الحطّابة:

— هذا ؟ لست واثقة منه. اما النمر فان رآك غضّ عينيه.

وكان أن أصبح لفئة من الناس، تضرب بين ترشيش
ودمشق، بلدة هي مرجع وزعامة.

وسيعتزّ الأمير بشير يوماً بالزحالة الذين يدخلون قلعة
سانور طليعة لجيشه.

ويملاً اسمُ زحلة، البطلة الحسنة، لبنان القَدَم واللبنانَ
الآخر المنطرح على المعمور.

انها فرسانٌ واسخياءٌ ومقاديمٌ وشعراءٌ وصناعيون، أين
حلّوا حلّت النخوة والعملُ المبدع ولكلمةُ الأنيقة وبسطةُ
اليد والشرف.

موقع البلدة المسوّر بالجمال كان خيرَ ما يوائم عهد
البطولة الفردية، يوم كان على المرء ان يحمي نفسه
وعرضه ويحمي جاره كذلك.

حتى اذا كان عهد التمدّين، واصبح الامن منوطاً
بالدولة، ازدهرت قرى مكشوفة وقاسمت زحلة الطموح.
عندئذٍ سبقتها دساكرٌ معلقةٌ عند الغمام، يمتد نظرها
بعيداً، فوق الجبال، على البحر المترامي إلى آخر الارض.
وبقيت هي على الصيت العريض يحميها ويزيد من
اعتزازها.

ان اسم زحلة اليوم اكبر منها.

تراها ستلحق بشهرتها ؟ انها تمشي على رجلين
وشهرتها تمتطي جواداً.

ويضطرب في صدرها مطمَع بأن تستأنف لعبَ دُورِ
المجد.

وهكذا تبدو وكأنما على وجهها مسحةُ حزن.
المجد اليوم يختلف عنه بالامس. فالفروسيّة والعملُ
الفردِيّ وإجارةُ الملهوف والموتُ على حدّ السيف حلّ
محلها بناءُ الصروح: المصنع، الشركة الكبرى، المختبرُ
العلمي، المتحف.

ترى ستُعطي زحلة ان تشقّ لنفسها وجوداً عصرياً في
حُجْم ما تحلم به ؟

ها هي، غداً ذات ضاحية صناعية تشغل عشرات الآلاف من
العمال، ولها دارٌّ للاوبرا تؤمّمها الفرق من ميلانو وباريس،
ومتحف وتاريخ للبنان محفور بالرخام: مئة تحفة يحجّها
طلاب المجد وكل من مرّ بعبلك وتدمرَ والاهرام.

وها هو شعبها: رجولة رافعو الرؤوس، واطفال اصحاء
ضاحكون، وحسان ذواتُ قدود منحوتة في اللازورد.

حُلْمٌ هذا، تقول ؟

ولكنك عظيم بقدر ما تحلم.

وفي بعض الحكايات المتناقلة، هنا، خَلَفاً عن سَلَف، أن
الخطّابة التي كانت قد بلغت في أواخر القرن الثامن عشر
مئةً وأربع سنوات، لا تزال تظهر من وقت الى آخر.

وهي انما تشاهد ليلاً. لا يشاهدُها الا الطاهراتُ القلب،
من أولئك الحسانِ المرحات اللواتي يتزهن على
الضفاف.

وذات مرة تراءت لصبية اجنبية، فبادرتها هذه بالقول:
— وانا، يا جدتي، هل تنبئين لي بشيء ؟
فقالت:

— سيكون لك في بلادكم قصرٌ ونهرٌ موزَّعُ الشعاب
في جنائنه الضاحكة. لكنك، بالرغم من هذا، ستظلين
عطشى إلى ماء بعينه...

وتسأل الاجنبية:

— والنمر ؟

فتجيب العجوز:

— هذا... إياكِ وهذا ؟ انه ليأكلك. اما ان تزوّجتِ
من هنا فيكون لك بنت...

وئتمّ ترجمتها الشهيرة: « صبية طاهرة كقلب الصبح
ان رآها النمر غض عينيه ».

ذلك ان الخطّابة، التي شهدت تأسيس مدينة الرجولة،
لا تتصور الحسن، الذي دونه تنهيب الوحوش، الا في
حسناؤها والدّها من الزحالة الأبطال.

التي غناها شاكسبير

لنقتعد حجراً من حجارة ذلك العالم الذي دُعي صور.
انه عالمُ تاريخ، لا سعة ارض.

لنسرّح بصرنا على جدار، هو البقية الباقية من كاتدرائية
مار مرقس.

كانت، فيما قيل، تضمُّ رفات الامبراطور فردريك
بربروس، وقامت على انقاض كنيسة ترقى إلى المسيحية
الاولى، على انها اجمل معابد فينيقية وافخمها.

بدأ البندقيون تجديد الكنيسة الثانية عام ١١٢٧، وما
فرغوا من التزيين الا بعد انقضاء مئة عام.

في انقراض هذا الجدار، راح الأثريُّ الألماني الدكتور سبّ ينقب، منذ ١٨٧٤، عن رفات الامبراطور. لكنه، فيما كان يعمل كان شخص آخر، هو أديب انكليزي، يفتش عن نهاية ارواح قصّة.

قصة بطلة من بطلات شكسبير، طريفة الحسن شفاقة. معلوم ان قلم شكسبير تعرّض، كما ولا أحد، الى مواقف الهول والجنون والدم. لكنّه، بمقابل ذلك، اطلع اجمل حسان الشعر: أوفيليا، دسدامونا، كاترينا، كورديليا، ميرندا، وأخيراً اللبنانية الشفاقة مارينا.

واذا مارينا، هذه، الحلوة بين حلواته دون منازع.

لفهم شخصية مارينا، بما حولها من خصب في القصص الغريب لن يدركه شكسبير مرتين، ومن جمال بحريّ فريد، ومن اضطلاع باعباء قلب لن يوح العشاق بأخلص أو أنبل، ومن فجاءات ولعب بالالباب، لا بد من استجلاء فاجعته « بيركليس، امير صور »، التي كُتب عنها، في عهد شكسبير نفسه، انها « احرزت نجاحاً لم تعرفه ولا واحدة أخرى من فواجعه كلها ». انها لتختصر حدثان القلب وزلازل القرن. تمرّس بالمعرفة لم يبلغه غير بضعة افراد في التاريخ، وانسحاق مع الهول، وحطّ نظر في

الجمال ينفذ إلى كيميائه، واكتناه للحياة من عل وعن
كثب معاً.

منذ البدء، نحن امام شخصية « جور »، دليلنا في
الإخبار وفضّ المعثيات.

يقصّ علينا « جور » قصة القصر الانطاكي الذي يطالعنا
مزروع الابراج بالرؤوس المقطوعة. فاذا هي حكاية مجد
وفضيحة والد على علاقة ببنته.

هذا، وبيركليس، أمير صور الشاب، ضيف المملكة،
يخطب بنت العاهل الانطاكي. حسناء دون نيلها حل لغز.
فان اخفق الطالب علّق رأسه في الرؤوس.

يدرك الصوري فوراً ان ثمة حياً محرّماً، فيحاول
التملّص من محاولة حل اللغز، فيستشعر الانطاكي انفضاح
امره، فيقول له انه يمنحه مزيداً من مهلة، وهو مُضمرّ انه،
خلالَه، سيقضي عليه.

يهرب الامير الصوري من انطاكية، مسلماً نفسه إلى
البحر يسري عنه هول ما عرف، فتدهمه عاصفة تشتت
مراكبه وتدفعه إلى مملكة « الخمس مدن »، حيث يغالب
بعض الفرسان، فينال يد بنت ملكهم.

وبعد عام، فيما هو في البحر، باتجاه مملكة صور،
تمرّض الاميرة الزوجة.

وتنازع.

فينقذون من أحشائها طفلة.

ووافق عادة قديمة، تَتَطَيَّر من ابقاء جثة في مركب،
توضع الزوجة في تابوت محكم، مع رقيم من الامير
يسترحم لها الدفن، وتلقى في البحر.

أما الطفلة فيدعونها مارينا. ويعهدون بها إلى ملك نزلوا
في أرضه. وتكبر في كنفه فاذا هي آية في الذكاء
والجمال. امر يستشير غيرة الملكة، فتدبر لها هلاكاً على يد
عَبْدِها ليونين. سوى ان قُرْصاناً يخطفون الطفلة من العبد
ويبعونها رقيقاً أبيض، في جزيرة ميتلين.

« — لماذا تردد وتباطأ ليونين في قتلي ؟ كان عليه ان يضرب
لا يُشفق. لماذا هاودتني قساوة القرصان فما رمت بي الى البحر
افتش في قعره عن امي ؟

— فيم التوجع وأنتِ ذاتُ بهاء ؟

— لأنني ذات بهاء ؟

— قُيِّضت لك يدان تكفلان لك الحياة.

— ما انا إلا أشدّ تعساً، وقد أفلتُ من يدين تكفلان لي الموت .»

ويقول لها حاكم المدينة وقد جاءها يستمتع:

— منذ متى انت هكذا ؟

— منذ كان الزمن الذي اذكر.

— لقد بدأت جدّ فتية... ترى كنتِ بنتَ لذة في الخامسة او

السادسة ؟..

— بل قبل ذلك، يا مولاي، ان انا كنتها اليوم .

وتصرخ به:

« أنا عذراء فانقذني... الا لتعضدني الآلهة ولو بأن تمسخني
عصفوراً يطير في طليق فضاء .»

وتسترحم الخادم:

« — خذ، خذ لك ذهباً. وان شاء سيدك مغنما فأعلنه ان في
مكتتي الغناء، وان أخيط أثواباً، وان أرقص. وفي طاقتي أن أدرس
كل ذلك. أكيد أن في المدينة طالبات معرفة .» —

وينبئنا جور بانها نجت، وراحت تلقن فتيات المدينة ما
تعرف من فنون.

ويكون بيركليس قد عاد يستردّ بنته من المملكة التي
تركها فيها. فيعلنونه انها ماتت، فيرسل شعره حزناً، ويهيم
في البحار. حتى اذا حطّت مرساته في الجزيرة، جيء اليه
بمن تُسرّي عنه، فاذا هي مارينا. فيعرفها.

بيركليس لوزيره:

« — آه، يا هيلكانيس. اضربني، افقر بجسمي جرحاً، مُسني بأذى،
مخافة ان يتدفق هذا الخضم من الفرع فوق شواطئ زوالي ويفرقني
في اللذة. »

ولا ينسى هذا اللبناني الورع ان يشكر للآلهة، فتصرخ
به بنته:

« — ولكن قل لي من انت، يا سيدي، وما اسمك ؟ »
— أنا بيركليس أمير صور. »

ويسمع أنغاماً علوية لا يسمعها سواه، فتأخذه غيبوبة،
ويهتف به هاتف الإلهة ديانا:

« — في افيز معدي. هلم الى افيز وضع لي. وعند احتشاد توابعي
العداري، وامام الشعب جميعاً، ارفع الصوت بانك فقدت زوجك في
البحر. »

ويتم الأمير ما طلبته الإلهة، فاذا زوجه على قيد الحياة،
احدى توابع المعبد، اصطيد تابوتها من بين الموج،
واسعفتها طيبة المدينة.

ويختتم جور المأساة، يعلن هلاك الانطاكي وبنته
وانتصار الحق والطهر.

قليل في « بيركليس امير صور » إنها اقوى من
« مكبث »، وانها افضل فواجه شكسبير جميعاً غنى

قصص، وانها، في وصف الوفاء النسوي، اجمل ما نُحِطُّه
قلم.

الفاجعة موضوعة منذ نحو اربعمئة سنة، فهل لها من
أساس تاريخي ؟

ان الاديب الانكليزي، الذي كان ينقّب في انقاض
الكاتدرائية، منذ العام ١٨٦٤، هو من سترتفورد، البلدة
التي ينتمي اليها شكسبير. هذا كان كلما عاد إلى انكلترا
يقول لمودّعيه على المرفأ:

— لم أخطّ الرحال بعد، سأرجع إلى لبنان، وسأعثر
على قبر مارينا. وفي عائلتنا في سترتفورد تقليد يقول إن
جدي، وقد كان بحاراً لبنانياً، هو الذي قصّ القصة على
شكسبير، واخذ وعدا بان تكون بطلتها أجمل بطلاته وان
لا يحيد عن سياق التاريخ.

« لكن شكسبير برّ بالاولى، وفي الثانية تصرّف على
هواه، جعل القصة تنتهي بان تتزوج مارينا حاكم متلين،
وتكون هدية والدها عرش صور بالذات.

« لكن جدي يقول ان مارينا لم تتزوج، وانها وحدها
اعتلت عرش صور. وقامت، على الاثر، بفتح عبر « بحر
الظلمات » وصل بها إلى بريطانيا، حيث كان الفينيقيون

يستخرجون القصدير، وأسست فيها مملكة كانت أعدل
ممالك الجزيرة.

« وفي التقليد المحفوظ في عائلتنا انه، يوم عودتها إلى
صور، انتحر على شواطئنا أربعون ألف شاب بان فصّدوا
أوردة سواعدهم لأنهم انما اقسّموا ان تراقفها دماؤهم إلى
المدينة الأم ».

إن قُيِّضَ لنا ان نعثر يوماً على قبر مارينا فقد نجد عليه
كتابة تشير إلى الفتح وإلى حادثة الانتحار.

بلى، بتر شكسبير القصة متدخلًا، هو ايضًا، في النزاع
على سيادة البحر. وانما لقب « جابرة التاريخ » خليف بان
تقتل من أجله سيوفٌ واقلام.

سِرُّ الْمَلِكَةِ

— هذا اليوم، وقَّنا الآلهة شرَّه.

— ماذا ؟ حلمٌ آخر ؟!

— ومتى لم تصحَّ احلامي ؟

بهذا كان يتحدَّث خفيران عند اسوار قرطاجة، في
ساعة فجرية باردة.

وما هي حتى شدة احدهما. فالتفت الآخر. فاذا هو
وجهاً لوجه امام الملكة.

— إيسّا !

— قصَّ عليَّ الحلم الذي رأيت.

كان الجنديُّ قد رأى ملكة قرطاجة. ولكن من بعيد.
في موكبها. ملتفة بمعطفها الأسود الطويل، تقصد وحدها
هيكل عثروت. لكنه لم يُعطَ قبل اليوم ان يسمع صوتها
يتوجه إليه.

فتلعثم.

— قل ولا تكتُم شيئاً.

— ولكن...

فصرخت:

— قل !

سوى أنه لم يسمعها: أغمض عينيه وانهار.

إيساً الآن تدنو من الخفير الثاني، تودّ لو تعوّض بلطفها
عما فعلت مهايتها برفيقه.

— لا تخف، يا صديقي، ملكة انا ولكني بشر. بشرٌ
حُمِلْتُ همّ الأرض. اقتعد هذا الحجر، ولنتحدث.

فأنس الجندي. ولكن عينيه راحتا تتلفتان إلى رفيقه.

فقالت الملكة:

— عبثاً تكلف نفسك: لقد مات.

واقعدت هي الحضيض. وأرسلت يدها إلى جبهة الصريع تداعبها وتبعثر من شعر.

— وأنت هل يلد لك ان تعرف قصة أليسا ؟ الملكة الديدون ؟ يكاد يهرب الزمن ولا يفسح لي في أن أحكيها. « ما أطيب أن تسمعها من فمي، أنت أحد جنودي الذي لا أعرف له إسماً، وتسمعها معك هذه الجثة الغفل. « أواه إنكما اعظم من العظماء ».

وسكتت هنيهة ثم، بعد قليل:

— مات والدي المليك، ملك صور، ولي من العمر تسع عشرة سنة. اما الشعب فمال إلى أخي بكماليون. وبكماليون هو الاصغر.

« الرجال أخلق بالحكم، قالت صور.

« ولكنها لم تُنصف.

« المُلْك ما المُلْك ؟ ما كنت لآبه له. لولا انهم اهانوا المرأة التي في ثيابي.

« سكْتُ، وتزوجت اكرياس كاهن ملقرت. الا أن بكماليون طمع بماله الكثير. فقتله.

« هؤلاء هم الناس.

« واعتزمت الهرب.

« من الناس لا من الحياة.

« ونحن الصوريين والصيدانة ملاذنا الصلاة، والكشف
ونداء البحر الكبير.

« وكان حلمي.

« سوى أن بكماليون مخيف. فهادنته لا خوفاً بل
تمرساً بالصفح.

« فلم يفهمها.

« وذات صباح الحّ عليّ حلمي، فلبّيته.

« أعلنت بكماليون انني سأنتقل إلى قصره. قصره في
صور الجزيرة. فطار فرحاً.

« وفيما هو ينتظر دخول ثروتي إلى بلاطه، كان عبيدي
ينقلون امتعتي إلى اسطول ينتظرنني في المرفأ مع نفر من
نبلاء حزبي.

« واقلعنا.

« وفكر أناس بالخيانة. فشهدوا عبيدي يرمون أكياس
الذهب في البحر. فأدركوا أن العودة إلى بكماليون بدون
الذهب خطر على رقابهم. فواصلوا المغامرة.

« وفي قبرص ابصرنا على الشاطئ مئات العذارى
يعرضن انفسهن — على عاداتهم هناك — مقابل المال
الذي يجمع ليشوق الزوج. كان رجالي اربعة وثمانين،
فأمرت باختطاف أربع وثمانين، غدون فيما بعد حرائر
قرطاجة وامهات ابطال العالم.

« وحين أطل هذا الشاطئ البهي، وكان لي به سابق
معرفة، ألقينا المراسي.

« وايتُ الا أن أشتري — وهم يضحكون مني — قطعة
أرض أبسط عليها برصة. أجل جلد ثور وحسب. فاذا
البرصة تكبر في سعة ما يمكن ان يصنعه الحدق الصوري
من رقائق لا تعد.

« وتكون قرطاجة.

« المدينة التي سيقال انها اجمل الممالك.

« ولكن هيارباس لا يدرك معنى الاحلام الكبيرة.

« هيارباس الملك، جارنا الذي باعنا الأرض.

« راح يطلب مني خلع هذا الحداد. كأن زوجي لم
يكن، وكأن ليس في شيمتي الوفاء.

« هو يريدني ملكة على عرشه أيضاً.

وقاطع الجندي الملكة صارخاً:

— نرفض.

فاكملت:

— إن رَفَضْنَا احرق هيارباس قرطاجة. وقرطاجة لم
تشتدّ ساعداً بعد.

« لسوف تفرض مهابتها يوماً على ابعث من نوميديا. أما
اليوم... »

« ولكن لا تهتم. لا تهتم. ودهاء إيسا ما نضب له
معين.

« الحياة ؟ لقد اعبتها شرارة خاطرها. وستعي الموت.

« الموت هذا غالباً ما يكون طريق الحياة.

فصرخ الجندي:

— ما تقولين يا مولاتي ؟

فاجابت:

— عند الصبح اذهب لتبقى قرطاجة.

« لا، لا تجهش هكذا بالبكاء. كن جندياً.

« إنطلق إلى القرطاجيين وقل لهم ان ملكتهم بانتظارهم
على الاسوار، عند هذه المحرقة، حيث ستقدم لزوجها

بعض القرايين. وان كنت تعرف اهل رفيقك فقل لهم:
« إن إليسا، التي اعوزها حنان الاخ، داعبت يدها جبهة
فتاكم وهو جثة ».

مضى الخفير، وقد ادرك ما كان حُلْمُ رفيقه: ملكتهم
تضرم يدها النار، ووسط اللهب تغمد في صدرها السيف.
ويكون وفاءً بالزوج وبقاءً لقرطاجة.

النفس بعد الموت

على مبعدة ستة وثلاثين كيلومتراً من بيروت شمالاً ؟
إذن قبل ثلاثة كيلومترات فقط من جُبيل، وعلى جُرْفٍ
صخري هارٍ، يقوم بُرج.

انه بقية من العصور الوسطى، انيق الخطوط، فَعَل فيه
الزمن ولكن قليلاً.

هو اليوم بيد علماء الآثار. رَمَموه عام ١٩٣٩ وتركوه
يطاول الجبل بعنقه العِملاقي الجميل.

كم من بطل من العهد الصليبي فاخر بأنه امتلك هذا
البرج ؟ انه لأمر يهم مؤرخي الحروب. ثانويّ إذن.

لكن للبرج قصّة رُويت منذ ثلاثة قرون لشابٍ اسوجي
مُوَحَّد، راح يُطوّف في الأرض عَقِبَ فاجعةٍ عصفتُ بِنياط
قلبه.

كان الشاب يتأمل البرج بصحبة صبيّ يعرف الانجليزية
ويُحكي لا يكفّ. وفجأةً بصرا بطائر كبير ينطلق من على
قمة البرج، فيحسُرُ الصبيّ عن رأسه وتروح شفتاه
تُغمِغمان.

— تصليّ ؟ سأل الأسوجي، ما جرى ؟
فأجاب:

— انها عصفورة البرج الزرقاء ! تسكّته منذ الوف
السنين. ولا تطير عنه الا نادراً: كلما عرفت الأرضُ حياً
عظيماً !

وبهت الزائر لبداية القصة، ولعل موضوعها العجَب
لامس وترأ في قلبه المحطّم، فسأل الصبي:

— كثيرون هنا يقولون قولك ؟

— أيّ قول ؟

— إن هذا الطائر لا يموت.

— ما من طائر هنا، ايها السيّد، إنها عصفورة البرج
الزرقاء. وهي خالدة. خالدةٌ لا تموت.

جرى هذا الحديث في أوائل القرن السابع عشر،
والحقيقة انه صدى لحكاية نورٍ قديم شَعَّ أول ما شَعَّ في
تلك الأرجاء، أرجاء جيل المقدسة، ومنها عمّ العالم.

منذ الوف السنين، قال كاهنٌ من جيل « ان للانسان
نفساً وان هذه النفس خالدة لا تموت. وما الموت الا
حجاب يفصل. ومن أحبَّ نفساً منتهى الحب هتك
الحجاب وردّها اليه ».

. ووحدها دون سائر حواضر الدين القديمة، تشددت
جيل في معتقدها الطريف. وقصدها منذ الألف الرابع،
ومن اقاصي الدنيا، اناس موجعون يستشفون بالإيمان
الجديد. جاءها نوميدون وهنود وصينيون وحضارمة
وبابليون ومصريون كانوا قد فجعوا بعزير لهم، ولدٍ أو والد
أو حبيبة عمر. ويوم قتل سيث مصر أخاه أوزيريس قصدت
إيزيس إلى جيل، دون سواها، تسترد الحبيب من الموت.

ويقال إن كاهناً في جيل طلب منها ان تحبَّ الوسيم
الغائب منتهى الحب، وتذوب في الدمع وفاء به، فبكت
المصرية النجلاء العنين، بكت حتى لم يبق في مآقيها بلل.
ولكنّ ذلك ما كفى.

ورق لحالها نهر هناك لُجِينِي التدفاق — يسمونه الفيذار
— قال لها:

— لا تَهَمِّي، مياهي أقرب ما يكون إلى دموعك.
استعيرها وأوهمي الكاهن أنك بغزارة نهر تذرفين الدمع
على الحبيب.
وهكذا كان.

سوى أن كاهناً جبليّاً لا يفوته شيء... فهمس في أذنها
ان ألف موجة من أمواج النهر تساوي دمةً من دموع
إيزيس.

ومضى الفيذار يقدّم من نفسه، ويقدم بسخاء، حتى
خافت إيزيسُ عليه فهتفت:
— ويحك، ستجفّ!

فأجابها:

— ما هم؟ يكفي أن أساعد حسناء على استرداد
حبيبها من الموت.

ولجوابه حنّت مآقيها من جديد، وأعطيت دمةً ولا
كالدموع.

جفّ الفيذار. ولكن حبيب إيزيس عاد إلى الحياة!

وكذلك عاد الاسوجيُّ إلى بلاده بعد أن قُصّت عليه
القصة، وهو أقلّ حزناً: أدرك أن التي فقدتها سترّد يوماً إليه.
إن البرج، الذي على مقربة من نهر الفيدار، يبدو
حديث البناء نسبياً. لكن آخر لبناني يعرف أنه إنما نهض
على انقاض برج قديم يرقى إلى ما قبل الألف الرابع.
ويتناقلون أنه على قِمَتِهِ كان قد أُقيم مذبحٌ من الحرمر
الجميل. هو المذبح الخاص بالكاهن الجبيلي الذي كان
أول من قال: « إن للانسان نفساً وإن النفس خالدة لا
تموت ».

ويتناقلون أيضاً أنه، منذ فاه الكاهن القديس بالكلمة التي
سترّن في آذان العصور، شوهدت عصفورة زرقاء تطير من
على يديه.

هذا البرج في لبنان لن يتهدم. وكلما فعل فيه الزمن
أعيد بناؤه.

فوق رؤوس الفري من بنات

ذات صباح من أواخر الشتاء، والربيعُ لمَّا يُطلُّ الا فراشةٌ
وسنونوة، اختلج الماء في نهر الميليس، فاذا بالإله اللجيني
المنطرح بين الحشائش — وكلُّ نهر عند الاغارقة إله —
يُتلع عنقه ويتلفَّت.

إنها امرأةٌ مثقلةٌ الخطى تقترب من ضفته.
— من أنتِ ؟ لتَّعْطُرُ الريحُ لغمسك فيها هذا القدُّ
المشيق.

— انا كريتيس، ايها الإله، سيقولون زوراً أنني صبيةٌ
شدتُ فهِرْبَتُ إلى ضفافك تخفي ثمرة الغواية.

— انتِ إذن حُبلى ؟

— كما ترى. لكنني أقسم بالآلهة أنني تزوجتُ والدَ ابني هذا، ليلة سفرته إلى وطنه، بلاد الأرز الذي يجايل الدهر. كانت النجوم جميعاً في عرسنا، ونوتية حمراء الوجوه، ضاحكوها فتحوا العالم وجأؤوني بهداياه. سوى أن المركب الذي أقل البشرين ابتلعتة العاصفة، أما النجوم فبكم تأبى ان تنطق وتشهد لي. لا، لا تكن كأهل كيم ذوي، أولئك الذين غلظت قلوبهم فلم يصدقوا.

وكان جواب الإله اللجيني ابتسامة بيضاء وموجة تكسرت عند قدمي الحسناء تلطّف من تقطيب حاجبيها ومن حرارة شعاعات الشمس.

وهكذا تصادق النهر وكريتيس.

ويوم ستضع ابنها ستسأله:

— ما ندعوه ايها النهر ؟

فيقول:

— ساعة وُلد لم يَك... اطلق صوتاً كنغمة من شبّابة قصب أو كبث بلبل، أسر الريح فكفّت عن الجري تصغي. سيكون لقوله أن يبدع دنيا جديدة. تعالى ندعوه باسم كلّه غناء. ما قولك بـ « ميليسيجين ».

— ميليسيجين ! إنه أجمل الأسماء. من لي بشاعر
يغنيني ؟

ويقال إنها وضعت في ظمئها إلى سماع الشعر، من
الشوق والحرارة، ما جعل الاقحوان الذي على الضيفة
يتجمع ويزورها رُتولاً رُتولاً. كذلك توقفت على الأفق
جمهرة النجوم واخذت تهبط على الطفل حاملةً اغاريد
الفلك العظيم.

وكبر الصغير، فطناً، أنيق الخطى، يحبُّ تسلُّق الصخور
العالية ولا يأنس الا إلى المستوى الأنوف.

وكان يلزم معلّم مدرسة من إزمير يدعى فيميوس.

وما أن يبلغ التاسعة حتى يعلن أمّه أنه يزعم سفرأ، وأنه
لا يحب شيئاً أكثر من البحر وبلاداً عبره يخيل اليه انه
يعرفها، يسكنها « نسل الآلهة » و « أصحاب لغة الآلهة ».

— إنها فينيقية ! قالت الأم في سرّها، ذاكرةً وطن الوالد
الذي كان سبب نّعسيها والهناء.

اما النهر فلم يمانع، اذ سأله أم ميليسيجين نُصحاً.
ووعدها بأن يُطلق مياهه ترافق السفينة التي ستُقلّ الولد
وتذكّره بأمه وبوطنها الذي على ثراه رأى النور.

وسافر ميليسيجين... وكان النهر، كُلُّ صباح، يروي
للوالدة اللهيف أخبار الرحلة كما تجيئه بها مياهه الموزعة
على البحار.

ها هو ميليسيجين في صور، يَطْرَب لسماع الشعر الذي
يُنشد على ذكر الأبطال العابقة ثيابهم برائحة الأرز
والشربين، ثم هو في مصر، في ممفيس نفسها تلميذة
صيدون، ففي الإيبارية حيث مناجم الذهب، ففي إيطالية
ذاتِ النهارات البهية والربيع الدائم، ففي اغريقية ذات
الجزر الألف التي توجع ربة الجمال.

ولكن النهر أقبل راكضاً، ذات صباح، وانطرح عند
قدمي الأم يكي.

— هذه المرة جئتُ أمزق نياط قلبك: أندبي اندبي معي
النور في عيني ميليسيجين.

— ماذا ؟ ميليسيجين ولدي أصبح هوميروساً ؟!

ولم تشأ الأم أن تعيش بعد أن انطفأ النور في عيني
ابنها.

اما النهر فعاد لا يذكر « الولد » الا بالاسم الذي كان
آخر كلمات كريتييس الحسناء.

— هوميروس ! هوميروس !

هكذا كانت تهتف ازميز يوم قامت بأسرها إلى البحر
تستقبل العظيم العائد إلى مسقط رأسه.

كانت شهرته قد طبقت الدنيا.

كان قد حمل بلاد أمه شعراً إلى العالم، ذاك الذي
سيحملها شعراً إلى العصور.

واستقر هوميروس في كيو. وتزوج بتاً يقال انها تشبه
أمه. وعرف الهناء العائلي. وكان في كل موسم يقوم،
والشعب في أثره كأنه عصاه، إلى مدينة من المدن يقني
الآلهة والبشر المتعاليين إلى المستوى الأنوف. فتطلل المدن
من على فمه، الواحدة تلو الأخرى، كأنما ترقى وترقى
حتى لتحاكي ما في ذهنه من قُب ومن مطلات العالم
الذي تُبدعه أناشيده. ويصف ضربة البطل، ودهاء العقل،
وفضائل القلب، حتى لكان كلاً مدرسة بذاتها تلقن الناس
كيف تفرّد الناس.

وذاث مساء، وقد كادت السنون تُثقل كاهله، خرج من
كيو في مركب فينيقي انيق، قاصداً أثينة، فاذا وراءه، وهو
لا يدري، مئتا سفينة. هي الإيونية بأسرها تُواكبه إلى
المدينة التي يُحب. ثم هي مئتا سفينة أخرى تخف إليه.

انهم اهل الاتيك جميعاً وفدوا إلى استقباله قادرين شرف
الزيارة.

لكن هوميروس استشر تبعاً خانقاً. فطلب ان ينزل إلى
ساحل ايوس، الجزيرة الصغيرة التي تواجه أثينة. ووسط
الأساطيل التي جاءت بنخبة الشرق والغرب راح يتحدث
إلى رفاقه، زمر الرعيان والصيادين، يقول: « إنني انوي
رحلة إلى فوق أحمل معي أهلي « نسل الآلهة »
و « اصحاب لغة الآلهة »، والنهر الذي عطف على أمي،
وأثينة، أثينة التي جئت أودع، والتي ستخلف بعظمتها
صيدون وصور ».

وسكت صوت هوميروس في فمه.
كف عن إسكار الناس ليروح يُسكر العصور.

عَلَى عَرْشِ رُومَةٍ

في الطريق إلى عكار، على مَبْعَدِ ستِةٍ وعشرين كيلومتراً أو أَزِيد من طرابلس، يقوم تَلٌّ وخرائب.

هي أطلال عَرْفِه. قيصريَّةُ لبنان. لَعِبَتْ دورها منذُ العهد الفينيقي، وذُكِرَتْ في لوحات تَلِّ العمارنة وفي الرُّقْمِ الأشوريَّة. حَجَّت الدنيا إلى معابدها، آياتِ الفن والدين، وكان لواحدٍ من أبنائها ان يَعْتَلِي عرش الامبراطورية الرومانية هو وعائلته ومستشاروه اللبنانيون، ويتدبَّر، من قصره فيها او من قصره برومة، مقدرات العالم. وقد قيل فيه انه الأَطِيب الأَطِيب والأَعْلَم الأَعْلَم بين الباطرة جميعاً.

في أول تشرين الأول، عام ٢٠٥ للمسيح، كانت دارة
في عرقه تُذيع البشائر بان جوليا ممّا رُزقت طفلاً ذكراً.
وتقول القابلة متنبئة:

— هذا الولد سيَطول بيده النجوم.

فتردّ جوليا ممّا متأوّهة:

— على أن تكون النجوم من شرف لا من حرب.

وتلقّى الأمّ دعوةً من روما.

— إملأ عينيك، يا الكسيان من مفاتيح لبنان، تهتف به
عند الوداع. فقداسةً هذا الجبل ستكون زادك الوحيد في
مدينة المجد والفجور.

وفي البحر، عند احتجاب آخر القمم اللبنانية، يستبدُّ بها
الحنين فنقول:

— باسمك أقسم انك إن رجعت إلى لبنان بنيت هيكلاً
للشمس لا اجملّ منه الا هو.

في ١١ آذار عام ٢٢٢، رقيّ اللبناني عرشَ رومة باسم
الكسندروس ساويروس. وكانت جدّته جوليا ميزا وأمه
جوليا ممّا اثنتين من جولياتٍ اربع غيّرن نظرة رومة إلى
المرأة، ونظرة العالم.

الأربع من عندنا، من عائلة الكاهن الأكبر خادمة معبد

الشمس في المقاطعة التي تدعى « فينيقية اللبنانية ». حَكَمَن رومة، واعتززن برومة، وخلعن على رومة إلى الأبد ما سوف تخلعه الميداتشيآتُ على باريس من عظمةٍ وفخفة أعياد وسياسة امبراطورية ودَهاءٍ وحُبٍّ وطيشٍ وإخلاصٍ. وَمِنْهُنَّ مَنْ فُقِنَ ملكاتِ باريس جميعاً بما تركنه من شهرة في امتشاق السيف بين الرجال وعلى رأس الرجال.

يقول المؤرخ جان بيلون إن الكسندروس، عندما رَقِيَ العرش، لم يكن على التمام « نسرًا لبنانياً ».

الا أَنَّهُ، منذ فتوّته، كان يُعَدُّ بين كبار المثقفين. وككل لبناني اتقن الآرامية، لسانَ لبنان، واللاتينية، لسان الدولة، والاعريقية خصوصاً، أداة الحضارة غَيْرَ منازعة. وكانت جدّته وأمه قد سهرتا على بابه تتقيان من تدفاق الزوار كلَّ شريف أو كل باسل. وسيمتدحه آباء الكنيسة بقولهم « ان سلامة الجِسم والخلُق عند هذا الوثني كانت رأس الفضائل ».

عَبَّ من علومٍ وفلسفةٍ ومن دينٍ انتقائي استخلصه من المعتقدات الرفيعة.

كانت الرئاسة النسوية في البلاط للجدّة جوليا ميزا. امرأةٌ فريدة الشخصية فريدة الدهاء. على أنها اصطدمت

وبنتها منذ الساعة الاولى بلبناني آخر يُضارعهما شخصية
ويفوقهما عبقرية. انه المشرع أوليان. قدم من مدرسة
بيروت تواكبه شهرةً طبقت العالم ليتسلم ما يُسمّى اليوم
منصبَ كبير الوزراء.

عام ٢٢٤ أصدر أوليان بوجه الجوليتين قانوناً يقلّم من
اظافرهما. الا انهما ستتغلبان وإن بثمان الدم.

تُوفيت الجدّة الداهية. فاغتبط انصار أوليان. لكن البنت
افتتحت عهداً بأن أقامت لأُمّها تكريماً عالمياً وسمّت
باسمها فرقة من الجيش.

وعندنا ايقونات تصوّر جوليا ممّا معبودة الجماهير
لخلقيتها المتشددة والناعمة معاً.

وتوطّد عهدُ الكسندروس ساويروس.

واحبه الناس في كل مكان.

كان الامبراطور، من وقت الى آخر، يقصد معتزلاً
يسامر فيه العظام المفضلين على البشرية: فلاسفة ورجال
دولة ومؤسسي اديان، يقدرون وحدهم ان يهدّثوا من كلفه
بالمُطلق. أورفه، ابولونيوس التّياني، ابراهيم ويسوع الذي
لم يبق من إمكان لتجاهله.

ويحضر فوق رتاجات قصوره الكلمة الخالدة: « لا تفعل بالغير ما لا تريد ان يفعله الغير بك ».

ورغم اعتداءات فردية تنطوي أحياناً على الهول، لم يُعرف عهدٌ أوفر تسامحاً أو أجمعُ على قَدْر الفضائل. ويعمل الامبراطور وأمه معاً للعلم. فتستقبل هي في انطاكية العلامة اوريجين استقبال الملوك، ويكلف هو جوليوس الإفريقي اقامة مكتبة في رومة وتألّف دائرة معارف. ويعتز كثيراً بان اللاهوتي إبيوليت قدّم إلى الامبراطورة الأم كتابه عن « القيامة ».

البطانة والوزارة من أساتذة مدرسة بيروت العالميين. انهم هناك جميعهم تقريباً: بِنِّيَّان، بُولس، أولبيان، مودستين. الثلاثة الاولون لبنانيون واعظمهم اولبيان، الرجل الثاني في الامبراطورية. كانت جوليا ممّا لا تزال تكرمه بسبب تشدّده بأن لا قِبَل للمرأة بالحكم. كان عليها ان تقول له انها قوية. أولبيان هو المدني الوحيد بين جمهرة عسكريين تحيط بالامبراطور، فسَهَلَت المؤامرة. واشترك فيها حتى زميلاه الوزيران. ولكن ردّة أولبيان جاءت فورية عنيفة: امر بقتل وزراء دونما محاكمة. فهتفت جوليا ممّا: « أولبيان انتهى ». هم الجند يلحقون به إلى مقاصير

الامبراطور، والكسندروس ساويروس ينزع الارجوان عن كتفيه يلبسه وزيره، علّ الهائجين يتحرّمون من مس شعائر المُلك. الا أن الجند لم يبالوا. قتلوا أوليان بينما كان الكسندروس يردّد:

— فَقَدْ نصفِ الامبراطورية ولا الاعتداء على عظيم.
وتكون تعاليم زردشت أدخلت في روع أردشير انه سيملك على آسية. فيقصده الكسندروس ساويروس في جيش تروح أمّه تُضخّمه على الطريق. ويتفشّى الطاعون في الجند. ويصاب الامبراطور. الا ان مناخ لبنان في عرقه يجترح الأعجوبة. ويصمدون. ويسأم الفارسي مواصلة حرب مُفنية. وتطير البشائر إلى رومة تُعلن وقف العدو. ويضع الامبراطور خطةً للسلم اصلاحية، نتيجة ما وصلت اليه بيروت من وعي لحقوق الانسان وللعدالة الاجتماعية.

لكن الثورة تنشب في الطرف الآخر من العالم. فيطير الكسندروس وأمّه إلى غوليا. ويعمل بروح مسالمة. فيعرض الصليح على الجرمانيين، فيرفضونه، فتضعف معنويات الجيش، فينادون بامبراطور جديد، هو جنديّ من تراقية أمّي جِلْف كلّ حسناته انه عملاق الجثة. وتكون محاكمات ومشاهد فاجعة يتغلّب فيها المظهر: التافه العملاق الجثة

يُفضَّل على العظيم الذي غزا الدنيا بمناقبه.

هو الكسندروس الآن يضم إلى صدره، في وداع مؤثر أبكى حتى الجند الشائرين، تلك التي أثبت أن ترافقه في الطفولة وفي الشباب، في القصور وفي ساحات القتال، في الحياة وفي الموت. قتلوهما معاً في ١٩ آذار عام ٢٣٥. وقتلوهما مرة أخرى عندما راحوا يشيِّعون انه، في اثناء وداعه لها، تلك التي احبته كما ولا أحد، اتهمها بان بخلها تسبب في موته.

ولكنهم، بعد انقضاء قرن، احتفلوا بذكرى الكسندروس ساويروس وجوليا ممّا، في أرجاء الامبراطورية جميعاً، بالعباد واعياد فوق الوصف. وفي عهد غاليان رفعوا الكسندروس ساويروس إلى مصاف الآلهة.

من عرّقه بلبنان، إلى عرش رومة، إلى ساحات العالم جميعاً، إلى الألوهة، مشى هذا اللبناني وأمّه — على ضعفهما البشري احياناً — مرفوعي الرأس.

وكان ذلك ايام عاصمة الامبراطورية شبه لبنانية، بعاهلها وملكاتهما ووزرائها، بعظمتها وجنونها.

ويتناقلون عندنا أنه، يوم قُتل الامبراطور وأمّه، سقطت

قُبَّةٌ من قصره في عَرْقه وسُمعت الرِّجَّةُ عَنيفةً في هيكل
الشمس، الذي كان قد بناه وفاءً لِتَنْذُر. فهتف الكاهن
بالمؤمنين: « يَخَيَّلْ إِلَيَّ أَنَّ المجد والفضيلة قَلَّا في
الأرض ».

يا حجاراً خَوَّافَتِ اللون في لبنان
قُصِّي كِتَابَ عَهْدِ نَضِيرِ.

قُبلة لافروديت

نحنُ على ضفة اليمّونة، الباعدةِ سبعةً وعشرين كيلومتراً
عن بعلبك.

بحيرةٌ معلقةٌ على خصر لبنان في علو ١٣٧٥ متراً،
تتغذى من ينابيع شتى كلّها مُتفجّرة من الصخر واكبرها نبع
الأربعين.

بهذه البحيرة ربّطَ الأغارقةُ حادثةً وقعت لافروديت،
ربةِ الجمال، في أروع اسطورة اطلعتها مخيلة شعرائهم.
فكلما جعّدت الريح ماءً بحيرتنا الجميلة استعاد اللبناني
المثقف قصة تيفيا بعذوبتها وهولها الفريدين. وإذا الخوف

وَقَذَفَ الصَّوَاعِقُ وَكَبَّ الْجِبَالُ عَلَى الْجِبَالِ تَغْزُو جَنَابَاتُ
بَالِهٍ وَيَخِيلُ إِلَيْهِ أَنْ أَمْوَاجَ الْيَمُونَةِ جُنَّ جَنُونَهَا وَكَبُرَتْ،
حَتَّى لَكَأَنَّهَا أَوَازِي الْأَوْقْيَانُوسِ فِي وَاحِدَةِ اللَّيَالِي الْعَاصِفَةِ.
وَتَظَلُّ هَكَذَا إِلَى أَنْ تُطَلَّ مِنَ الْبَعِيدِ الْبَعِيدِ شَعَّةُ شَمْسٍ صَبِيَّةٍ
تَأْمُرُ الْأَوْقْيَانُوسَ أَنْ أَهْدَأْ، فَيَهْدَأُ.

كَانَ تِيفِيَا ابْنًا لِلْأَرْضِ عَجِيبًا. حَبَلَتْ بِهِ وَلَمْ يَمْسَسْهَا
بَشَرٌ أَوْ إِلَهٌ، وَعَهَدَتْ بِتَرْبِيَّتِهِ إِلَى تَيْنَيْنِ. إِنَّهُ مَخْلُوقٌ بَيْنَ
الْإِنْسَانِ وَالسَّبْعِ. يَفُوقُ حَجْمًا وَقُوَّةً أَبْنَاءَ غَايَا جَمِيعًا. أَكْبَرُ
مِنْ جَبَلٍ. وَلَطَالَمَا صَدَمَ رَأْسُهُ إِحْدَى النُّجُيْمَاتِ فَفَقَّتَتْهَا. إِنْ
فَتَحَ ذِرَاعِيهِ حَمَلَ الشَّرْقَ بِالْيَمْنَى، وَبِالْيُسْرَى خَمَشَ وَجْهَ
الْغَرْبِ. أَصَابِعُهُ مِئَةٌ، كُلُّ مِنْهَا رَأْسُ تَيْنَيْنِ. وَهُوَ مِنْ وَسْطِهِ
فَمَا دُونَ مَغْلَفٍ بِالْأَفَاعِي. جِسْمُهُ مَجْتَنَحٌ وَنَوَاطِرُهُ لَهَبٌ...

وَفِي الْحَرْبِ الَّتِي نَشِبَتْ بَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ — تِلْكَ
الَّتِي سَتَدُورُ دَوَائِرُهَا عَلَى الْأَرْضِ — مَا كَادَ تِيفِيَا هَذَا يُطَلُّ
عَلَى السَّاحَةِ حَتَّى خَافَهُ الْآلِهَةُ وَأَرْكَنُوا إِلَى الْفِرَارِ، مَخْتَبِئِينَ
تَبَاعًا عَلَى الطَّرِيقِ بَيْنَ الْيُونَانِ وَمِصْرَ، وَقَدْ تَبَدَّلَ كُلُّ حَيَوَانٍ
أَلِفًا أَوْ سَمَكَةً أَوْ طَائِرًا خَوْفَ أَنْ يَعْرِفَهُ تِيفِيَا فَيَقْضِي عَلَيْهِ.
تَبَدَّلَ أَبُولُونُ صَقْرًا، وَهَرْمِسُ كَلْبًا، وَدِيُونِيزُوسُ كِبْشًا،
وَهَيْفَايَسْتُوسُ ثُورًا. أَمَّا أَفْرُودِيتُ، وَلَمْ تَكُنْ قَدْ تَسَمَّتْ بَعْدَ

ربة الجمال، فقد رمت بنفسها في بحيرة اليمونة علّها
تتحول إلى سمكة. ولم يصمد في وجه الطيطن العملاق
سوى أثنا ربة الحكمة وزوش كبير الآلهة.

راح زوش يقذف تيفيا بصواعق يديه. حتى اذا التحما
صدراً لصدر كانت الدفعة تُلقى بهما من صعيد مصر إلى
صحراء البتراء ومن صحراء البتراء إلى صعيد مصر. أخيراً
ضرب زوش تيفيا بمعزفه الفولاذي فأوقعه على الأرض. إلا
ان الطيطن استقوى بأمه فإذا هو جريح ليس إلا. ارتدّ على
زوش وانتزع من يده المعزف، وبضربة كبّ كبير الآلهة
على وجهه ثم قطع أطراف عضلاته وحمله على ظهره إلى
كيليكية حيث حبسه في المغارة الكورسيّة. أما اطراف
العضلات فخبأها في جلد دبّ وضعه في حراسة التينة
دلفينا.

من أنقذ زوش ؟ أيّ داهية قدر ان يعرف مكان التينة
فقام يُعمل فيها رُمحه الطويل ويردّ على كبير الآلهة اطراف
عضلاته ؟

ما لك الآن ولهذا. وحسبك ان تعرف ان زوش استردّ
حريته وقواه وانطلق إلى السماء، وأسرج خيول عربته
المجنّحة وراح يضرب الطيطن بصواعق ولا أشدّ.

وتوقف تيفيا على جبل نيزا يُنَعش نفسه بأكل ثمرة مسحورة من تلك التي تحملها اشجار الجبل. فلاحق به زوش. فهرب. حتى اذا انتهيا إلى تراقية شرع تيفيا يسليخ الجبال عن جلد أمه ويضرب بها زوش، فيردّها عليه كبير الآلهة مفتتة ممزوجة بالحمم. ولقد دُعي جبل ايموس بهذا الاسم — ومعناه بالاغريقية الدم — لانه انما تكوّن من نقطة دم انحدرت من بعض جراح زوش. واخيراً، فيما الطيطن يجتاز صقلية منسحباً، قذفه زوش بجبل إثنا فغّيه إلى الابد. وما الحمم التي يُطلقها هذا البركان دوماً الا بعض مما يصبقه الطيطن او مما تبقى من صواعق كبير الآلهة.

هكذا انتهت الحرب بين الطياطين وزوش. وكان على هذا ان يعود الى رفاقه ورفيقاته، اولئك الذين حولهم الخوف إلى حيوانات أليفة أو أسماك أو أطيّار، ويردّهم إلى طبيعتهم الالهية الأولى.

لكنه لم يتسنّ له ذلك على التمام، لانهم انما كان قد طال عليهم الأمد لطول أمد الحرب بين زوش وتيفيا. فبقي في إله الشعر من عنفوان العقاب، وفي إله البلاغة من نباح الكلب وفي إله الخمر من قرني الكيش، وفي إله النار من

خُوار الثور. اما افروديت فكان شأنها آخر: عندما غطست في بحيرة اليمونة قَصْد ان تتحوّل إلى سمكة، أُعْجِبَتْ بها البحيرة ورَقَّت لجمالها مدركةً ان ضيقتها إن تلبّست سمكة إلى أمد فقد يترك ذلك على أناقتها وبضاضة جسمها ما يشوب، فكانت كلّ يوم ترفعها إلى الشاطئ، تغسلها من سمكيتها وتردّها إلهة سوية. حتى اذا بصرت بالطيطن المنخيف يَمُرُّ حَيالَ حَيال ضمّتها اليها من جديد، سمكة اجمل السمكات.

وكانت البحيرة من وقت الى آخر تحدّث افروديت عن ابن ملك من لبنان، فتى فتيان بهيّ الطلعة مفتول الزند لا يقدر سواه أن يقنص التناين. فتكابر افروديت ولا تخوض في حديثه أو تسألها عن اسمه. وذات يوم، فيما هي تتجول وحدها بعيداً عن البحيرة، ضلّت طريق العودة. وانتهى بها المطاف إلى أحد ينابيع العاصي فاذا النهر يدعوها لاهثاً مستغيثاً. حتى اذا اقتربت منه قال انه في حاجة إلى أن يسرّي عن نفسه بأن يكشف لها، هي بالذات، عن سرّ لا يجوز ان تسمعه الا إلهة محض إلهة.

— وما هذا السرّ ؟ سألت افروديت.

قال النهر:

— جاءتني موجةٌ من موجاتي، من البعيد البعيد، من
مصّبّها عند البحر تحت كيليكية، تخبرني بأن أطراف
عضلات زوش مخبوءة هناك، وأنّها في جلد دب في
حراسة التنينة دلفينا.

وعادت افروديت ركضاً إلى صديقتها البحيرة تسألها،
هذه المرأة، عن ابن الملك فتي الفتيان البهيّ الطلعة المفتول
الزند من لا يقدر سواه أن يقنص التنانين. فهتفت البحيرة
فرحة: انه قدموس ابن الملك أغنار. وما هي حتى جمعتها
به. ومقابل وعد بقبلة من افروديت تعهد قدموس بأن يقتل
التنينة دلفينا ويردّ على زوش اطراف عضلاته.

هذه هي القصة عن نجاة كبير الآلهة وانتصاره على
الطيّاطين ابناء الأرض.

ويوم يُرسل زوش هيرا، زوجته، وأثنا، ربة الحكمة،
وافروديت إلى باريس ابن الملك فريام، ليفصل في مَنْ
منهن هي اجمل، يتشتم باريس في هيرا وأثنا نفساً غير
محض إلهي، ولا يجد نفساً تامّ الألوهة الا في افروديت.
فيهتف، وقد رمى اليها بالتفاحة:

— إلى ربة الجمال !

ويخبرك سُكان اليمونة ان امواج بحيرتهم اختلجت

لفورها عند صدور الحكم من فم باريس، وهم الذين ما
شكّوا يوماً في صحّة عدالته ما دام أنهم وحدهم شهدوا
افروديت عارية...

وتخبرهم اليمّونة بما كانت تعمله لافروديت. وتقول
مزهوّة:

— سترون انه وفاءً بصنيعي ستؤثر ربّة الجمال سكنى
لبنان على سكنى الأولمب.

ولكن متخابثاً وسيم الطلعة يردّ قائلاً:

— بل ستؤثر افروديت سكنى لبنان لتفتش عن قبلّة
كالتى ذاقتها هنا من فم قدموس...

يَرَفَعُ الْأَرْضَ عَنِ الْوَسْمَاءِ

في عشية من عشايا الربيع كان راهبٌ وشاعرٌ مكبَّينَ
على نصِّ يونانيٍّ هو « مدائح العذراء » أو، على الأشهر،
« المدائح » وكفى. قصائدٌ على كلِّ شفة ينشدها أبناء
الليتورجية البيزنطية كلَّ مساءٍ جُمعة من آونة الصيام.

— تعرفُ يا أبت ؟ انني أعُدُّ المدائحَ أجملَ شعرٍ أطلعه
قلم.

وتتهلَّلُ أسارى الراهب. فيكمل الشاعر:
— في ذهني، وأنا أُطلق هذا الحكم، أروعُ تُحفِ
الدنيا: فقراثُ الحب الناريةُ الباقية لنا من سافو شاعرةٍ

شاعرات الغزل، وجوقات أيسخيلوس التي تُسمع انين
الانسان ولو من تحت صخرة القدر، وبعضُ مزامير داود
وهي آية الايمان والجمال سلكت النجوم كلماتٍ ورفعتها
إلى عتبات عرش الله، « ونشيد الانشاد » المعزوّ إلى
سليمان وهو حب ملكٍ لفتاة قروية رفع القلب الساذج
إلى قوة خمرة تسكر رَجُلَ العقل، و « كوميديا » دنته وهي
التي، لبهائها، أضافت اليها الأجيال نعت « الإلهية ». انحصرت
منها لا « الجحيم » أو فصلاً منه بالذات بل « الفردوس »
حيث تقودك يدُ بياتريس إلى وجهٍ فوق ما تتحمل العيون أو
تفجّر له فرحةُ القلوب. وفي ذهني كذلك غزلُ بترارك
جميعاً. هذا عند الأغارقة والعبران والطلليان. ومن الانكليز
والألمان في ذهني تُحفّ لشكسبير لا من « السونيات »
وحسب بل من « الملك لير » أو من « العاصفة » و « حلم
ليلة صيف »، القصتين الاثيريتين الدائرتين على شفا الوجود
واللاوجود، ثم من « فوست » الرائعة التي على الانسان
يتخطى مقدوره، وقد بقي غوته يُعمل فيها قلمه مدة ستين
سنة. واخيراً في ذهني من فرنسة اياتُ برأتها، كما برّد
الذهب أو حفّ الماس، اناملُ ملارمه وفاليسري:
« هيرودياذ »، « الخطي »، « اغنية نرسيش ». ومع هذا
تراني عليها جميعاً أوثر « المدائح ». احفظها عن ظهر

قلب بالترجمة العربية واتهجّأها مُستمتعاً بنغماتها الأنيقة في الأصل الأغريقي، وأحياناً حاول تلمّسها بقليلٍ ما اعرف من الروسية. واني لو دريت ان لها ترجمة عند الهنود لما ترددتُ في معالجة لغتهم أُتَبِّين كيف أُفرغت آية الطُهر في لسان فلميكي وقليداسا.

وسكت الشاعر قليلاً ثم استطرد:

— شعراء الدنيا وموسيقيوها جميعاً توسلوا إلى القارئ بالحُزن، أو بالاحرى بطعمٍ من الحزن بعينه هو الكآبة، ليحرّكوا نفسه اليابسة. حتى في المسرة تسمعهم يئنّون. الجرح عندهم وسيلة، اما الفرح — الفرح مباشرة — فقلٌّ مِنْ اهل القلم او الوتر مَنْ بنى به وأعلى. بيد أن الشاعر الآلهي، صاحب « المدايح »، رَفَعَ من الفرح كاتدرائيةً شعريّة تكاد تحاكي « أيا صُوفيا » وتشيلُ بها على جناحين. كلُّ ذلك إكراماً للتي، على تواضعها، قالت ذات يوم: « ها منذ الآن تُمجّدني كل الأمم ».

قال الراهب، وهو عالمٌ هيليني من طراز جلل:

— ولكن هل تعرف، يا صديقي، ما علاقة « المدايح »

ببلبان ؟

وتهيبه الشاعرُ للسؤال. فأكمل الكاهن:

— إسمع. فيما أنا أنقب انتهيتُ إلى ان « المدائح » هي
من صنع رومانوس.

فيقول الشاعر:

— ماذا ! رومانوس، رومانوس المرثم، ابنُ المقاطعة
المعروفة بـ « فينيقية اللبنانية » وتلميذُ مدرسة بيروت، هو
صاحبُ « المدائح » ؟

— نعم، قال الراهبُ العالم، هو صاحبُ « المدائح ».
وما أدري أفي بيروت وضَعَهَا ام في القسطنطينية. لكنني
املك الحجة المادية على انها له. كشفتُ حروف اسمه
مبثوثة في مستهلّ الكلمات الاولى من مقطوعات نشيده.

هذا ما دار في تلك العَشية بين الصديقين الكَلِفين
بالادب الاغريقي. وكان ذلك في دير من اديار الرهبنة
الشويرية في الجبل.

كَرَّت الايام.

واذا بك تجد الصديقين في صيدون يحجّان آثار المجد
القديم. حتى اذا انتهيا إلى تلة الموركس — وهي تمة
للقلعة ترتفع إلى اربعين متراً في مئة طولاً، كُلّها من المواد

التي كان الصيادنة يستخرجون منها صباغ الأرجوان —
قال الشاعر:

— هذه التلّة، يا أبتِ، تردّني إلى شعر « المدائح » .
فيسكت الراهب غير متبيّن أيّة وشيجة تشدُّ شاعرَ
العدراء إلى تلّة بعينها ترقى إلى عهد وثني.

ويستأنف الصديقان الرحلة إلى الجنوب. وفيما السيارة
تنهب الأرض لاهثة، والزمان يطول، والشاعر لا يحير، وهو
يعلم ان الراهب العالم ينتظر شرحاً، اطلّت صور.

— هذه اخيراً بطلة المدن، يهتف الشاعر: الكلام عليها
ما له نهاية. فلنتوقّف منها عند أشتات اسطورة بالذات
كادت الآن تلفنا كأنها ريح. أكيدٌ انها سَحَرَتْ رومانوس
فاختارها من بين الالوف. انها اسطورة تيروس، الحسناء
التي باسمها تسمت المدينة. كانت تيروس واحدةً من بنات
الماء الفينقيات. اول صدى لقصتها تجده عند المؤرخ
بولوكس في الكتاب الاول، الصفحة الخامسة والاربعين.
ثم يتكاثر ذكرها عند الاقدمين. قالوا: كانت تيروس تتنزه
على سيف البحر فبصر بها الإله ملكرت، واذا بكلبها مقبل
وقد عضّت نواجذُه على حيوان بحريّ مصدّف يقطر منه
دَمٌ ذو حمرة تأخذ بالألباب. فالتفت تيروس إلى إله البطولة

وقالت: اكون لك ان صبغت لي بهذا الأحمر البهي ثوباً
أخطرُ به بين الآلهة.

وأقسم ملكرت ليفعلن.

وراح رجاله، بحارة صور الشُجعان، يفوصون في اليمّ
مواجهين الف خطر ومنقبّين عن الحيوان المصدّف النادر.
انه المورِكْس: دعي الصباغُ الذي استُخرج منه ارجوانا او
برفيرا. ثم عمت الكلمة حتى باتت تُطلق على ثوب العاهل
فلا يقال: لبس الملك مطرفاً مصبوغاً بالبرفير وانما لبس
الملك البرفير. بلى منذ الكلمة التي تحدّثت بطولة البطل
وقسمه بأن يستجيب للتحدي، دشّن أجدادنا تمرّسهم
بأخطار البحر: بدأوا يتعرفون إليه، في قعره وابعاده، في
هوله وعجائبه. وكان ان ولدت المغامرة التي افرغت البحر
من ألوهته، وراح غزليو بلادنا يتغنون بالموركسة. وبعد
ألف السنين كان رومانوس يتمشّي تحت الاعمدة المشيقة
من معاهد بيروت، وهي التي كانت تمّت بنسب إلى
اعمدة بعلبك، يدرس ولا بد في سنخني أتن، المؤرّخ
البيروتي، اساطير جيل وصيدون وصور. ويكون ذهنه
منشغلاً بنشيد للعدراء يريدن لا يعلو عليه شعر، لا في
الوثنية ولا في المسيحية. حتى اذا انتهى إلى اسطورة

تيروس التمتع له خاطرٌ شهم، هو أن يجد في الموركسة
رمزاً لاحشاء العذراء. الموركسة، قال، خَلَعْتُ على تيروس
ثوباً تخطر به بين الآلهة، ومريمٌ خلعت على الله جسماً
يخطر به بين البشر. هي الوثنية بأسرها تتجمع في كلمة
وتقدّم نفسها هدية إلى الايمان. وهكذا هتف رومانوس
للعذراء، مُطلعاً أجمل بيت في المدائح:
— افرحي، يا موركسةً منها صُبغ البرفيرُ لملك
المجد ! ».

عَظِيمُ الْعِظَمَاءِ

« في أوائل القرن الثامن، كان القاطنون في حيّ بعينه من بعلبك، ممّن تقوم بيوتهم حول الساحة — وهي بهذا الاسم وإن لم تكن تزيد على تسع قصبات في ثمان — يُكِّرون صباحاً إلى احتلال الشبايك.

وكان أناسٌ من الأحياء الأخرى يستضيفونهم لا شيء إلا ليستمتعوا معهم بالرؤية.

وعند بزوغ الشمس تماماً، أو بعيدة بقليل، تأخذ الرؤوس تتحرك خلف الشّعريات.
إنهم الحضور اكتملوا.

وعمّا قريب سيصل المُتَظَر.

وتكون العجائز قد كَنَسْنَ الساحةَ من ورقةٍ حَمَلَتْها
الريح أو من فُتات خبز وقشرة بصل تركهما مكارِيٌّ تعشَى
تحت حِنِيّة. اذ ينبغي ان يبقى المكانُ نظيفاً لكي لا تقع
عينا القادم على شيء يكدر.

وما هي حتى ينفجرَ من احد الازقة بعضُ الصبية،
ويلاقِيهم ولد من هنا وآخر من هناك.
وتهدأ الجَلَبَة.

ويروحون، الواحدُ تلو الآخر، يتوجهون إلى جهةٍ
بالذات وقد ترصّنوا وخفتت الاصوات.

أما الرؤوس التي في الشبايبك خلف الشُعْرِيّات فتكاثُر.
ويُسمع همس:

— عبد الرحمن ! وصل عبد الرحمن !!

انه هو أيضاً ولد. ولدٌ مثل هؤلاء، في الحادية عشرة لا
تزيد.

— تلعبون ؟ يقول لهم.

فيهتف واحد:

— لا يا عبد الرحمن. اليوم في حَيِّ الهياكل ميت.
وعما قريب سيخرجون بنعشه.

— ما هَمَّ، يجيب عبدُ الرحمن، آباؤنا يؤاسون. اما
نحن فقد جئنا لنلهو.

ها هو اتيق الاشارة يصفق فيطيعون: يقسمهم ثلاث
فرق، يركض أمامهم، يثُّ بعضاً في زاوية وآخرين تحت
شُرْفَة، يَصْفِر، يبعثهم، يجيء بهم، واخيراً يعلن غلبة
الغالبين. ويحاول بعضهم اعتراضاً، فيتسم له هو، فيختنق
الاعتراض.

كل هذا بحركة ملمومة: لا يَعْنَف، لا يبالغ، لا يرفع
صوتاً، وله ضحكة ولا أوقع، تُشجّع أبداً وتقرب بين
المتخاصمين.

— أَسْكُتْ إكراماً لعبد الرحمن، يقول واحدٌ لمشاكس
نال منه.

ويكونون قد تعبوا. فيقتعدون إفريزاً وهو على رأسهم
في الوسط. ثم متى شرع في الحديث يروح الأبعدون
يتركون الإفريز شيئاً فشيئاً حتى ليصبحون بين يديه على
الأرض في حلقة رحبة.

— كان عليك ان تسكت، يا جَرِيس. إن محموداً
مُحقّ. لقد ظَلَمْتُ.

فيسأله واحد:

— ما معنى « ظلمت » ؟ كلمة أخرى جديدة. من
المُصحف ولا بدّ. لم نصل بعد إلى كتاب الله.

— تميّزُ الظلم من العدل، يُردّ عبدُ الرحمن، يكون فينا منذ
الطفولة. كذلك تميّزُ القبح من الجمال. نحن اليوم كبار،
بعضنا في الثانية عشرة.

ويسأله سائل:

— حقاً قلتَ امس إنه كان عليّ ان لا أضرب عُمر ؟
كان عُمرُ قد ضربني.

— إضربه، يردّ عبد الرحمن، حَقُّك هذا. انه يُسمّى
عدلاً. ولكن بامكانك وقوف الموقف الاجمل. انظر إلى
هذه الاعمدة. أتظن ان في الدنيا اروع ؟

فيتطلّعون ! فاذا الاعين مسمّرة على هيكل جوبتير وقد
راحت شمسُ الصباح. تواجه منه جانباً وتبقى آخر في
الظل، فييدي بهاء غير معتاد.

فيكمل عبد الرحمن:

— بلى أن تُسكَّت عن المسيء أحسن. معاقبته عدلٌ
وهذا محبةٌ. والمحبة فوق العدل.

فتموج الرؤوس خلف الشَّعْريَّات استحساناً، وتُسمع
كلماتٌ إعجاب، فيُهسهس واحد:

— بالله عليكم لا ترفعوا الصوت. ان درى بنا أخذهم
ومضى.

ويسأله صبيٌّ أكبر منه:

— وعدتُنا منذ اسبوعين بنقد الحكاية التي قصَّتها أبو
صلاح.

— صحيح صحيح، يقول عبدُ الرحمن، لقد اعجبني أبو
صلاح. لكنه جعل الشيخ زين العابدين، بعد أن انتصر على
أعدائه، يقطع شجرهم إثماً لآبئه القتل. ما ذنب الشجر؟
كانت واحدة تظلل ابنه وهو في قيد الحياة. وزينُ
العابدين؟ بلى كان بطلاً. ضرباتُ سيفه تأخذ بالألباب. إلا
أنه رضي بأن يواصل جنده تسديد السهام إلى عدوه بعد أن
أدّرع عدوه بأولاده. هذا ليس في الانسان.

فاعترض احد الصبية:

— ما تقول، يا عبد الرحمن؟ لو أنه كفَّ عنهم لكانت
النجدة وصلت إليهم في حينها، وغلب زينُ العابدين.

— فليُغلب، ردّ عبد الرحمن. على المرء أحياناً أن يؤثر
الانكسار. رب انكسار اجملُ من ظفر.

فتهتف امرأة من أحد الشبابيك:
— سلم فمك.

فيتطلع، فاذا عشرات الرؤوس قد أطلّت، فينهض، ويغمز
الصبية، وينطلقون.

ذات يوم من عام ٧٢١، وكان قد كبر سنتين، جمعهم
في الساحة وراح يودّعهم:

— الليلة رأيتُ في منامي رؤيا جميلة. قال تركت
بعليك. وقال أنا في دمشق أخطب في المسجد. ثم أنا مرة
أخرى في لبنان، في بيروت، يجيئني اناس يستفتونني، من
الشام، من المغرب، من الهند، من بلاد تدعى الأندلس.
اسمٌ جديد على الدنيا. اضغاث احلام... اما تظنون ؟ وما
هم. فلنكمل. قال إنني أحببتُ اهلَ بيروت واهلَ الجبل.
ومن أجلهم رفعتُ الصوت على الظلم بوجه اكبر ملك في
الدنيا لان وُلاته جاروا على لبنان.

وسكت الصبية. وكانت الدموع تطفر من الأعين.

فأكمل عبد الرحمن:

— انه حُلْم... حُلْم ليس الا... على أيّ حال انا ذاهب
غداً إلى دمشق. وقد اموت فيها، وقد أموت في سواها من
بلاد الله، لكنني أريدكم إلى شيء: إن صار واحدكم موسراً
فليتصدق على رفاتي ولينقله إلى لبنان.
قالها مُغلّفاً حزنه بالضحك.

في اليوم التالي كانت دمشق بأسرها قد خرجت إلى
الطرق تستقبل ولداً غير عادي يقال له « عبد الرحمن
الاوزاعي ».

* * *

هكذا قصّ قصة الإمام العظيم في حياته راهباً من
غزير كان يزور مع تلامذته مسجداً في ظاهر بيروت
راحت أرضنا بسببه تعتزّ بأنها تضم رفاتاً فريداً. رفات من
قيل فيه: « كان الإنسان الكامل، أعلم علماء عصره
وأشرف شرفاء عصره ».

يَوْمَ زَلَّ الرَّسُوعُ لِبْنَانِ

مرةً في حياته الزمنية ترك وطنه الأرضي.
وكانت ليحيى إلى لبنان،
ولكن لماذا لبنان ؟
ليس عند مؤرخه متى جواب.
وفي مرقس نراه يطلب ان « لا يعلم به أحد ».
تراه كان تعباً فجاء إلى أرضنا ينتجع الراحة ؟
لكم يطيب لنا أن تكون أرضنا بددت بعضاً من
تجعدات على جبينه.
منذ متى تراه يعرف لبنان ؟

أواه ! ان ذلك لمتقادم في الذاكرة:

انه لطفل يصغي في الهيكل إلى قارئ الكتاب:

أرزة في لبنان،

شامخة القوام،

عظمتها المياه،

والقمر رفعها،

أنهارها جرت

من حول مغرسها،

ومجاريها أرسلتها الى كل أشجار الصحراء...

في اغصانها عششت كل طيور السماء.

وتحت فروعها وُلدت كل السباع.

وفي ظلها سكنت كل الامم..

السرو لم يماثل أغصانها.

والدلب لم يكن كفروعها.

وكل شجرة في جنة الله لم تضارعها بهجة...

فغارت منها كل أشجار عدن،

تلك التي في جنة الله.

ويصغي:

فاغية مع ناردين،

ناردين وزعفران،

قصب ودار صيني،

مع كل شجر اللُّبان.

مُرٌّ وعود،

مع أفخر الأطياب،

عينُ جنّات،

ويثُرُ ماء،

وأنهارٌ من لبنان.

وما لبنان ؟

أكثرُ من لفظةٍ حلوة يجعلها الكتابُ صنوّةَ البهاء.

أكثرُ من منظرٍ يلتفت إليه هو من الجليل، فاذا العين
سُكنى لزهر وشربين وليياضٍ على القمم.

أكثرُ من ريحٍ ليّنة تُداعب وجهه فيغنيّها:

هَبِّي، يا شمال، ويا جنوب، انسيمي.

من رأس أمانه،

من رأس سنير وحرمون،

من مرايض الاسود،

من جبال النمر،

من لبنان.

ويروح يشعر حيال لبنان بما هو فوقَ عهده الاول
بكلمة الآب، وفوقَ قرّة العين بنسَمٍ ومنظر بهيج.

ماذا ! تراه لمس يوماً ارض لبنان ؟ أو استعدّ للتماس
بينه وبين سلسلتي الجبل البهي ؟

عَهْدَ كان فتياً يمرح على بحيرة جنسّر، لطالما سرّح
نظره على تدفّاق الاردن الآتي من فوق، ومما وراء فوق.
— من أين، يا عمّ، ينبع هذا النهر ؟ سأل ولا بد ذات
يوم راعياً عجوزاً.

فأجاب الشيخ:

— انه ليتجمع من ذوب الثلج على الحرمون.

— الحرمون ! قال هو متذكراً.

— هذا الجبل الذي ترى، المجلّل كالشيخ، طوال السنة
قريباً، ببياضٍ صافٍ. إنه احدى سلسلتي لبنان.

— لبنان ؟ أجاب مستغرباً بسذاجة، لبنانُ الكتاب ؟

— نعم، لبنانُ الكتاب.

تراه منذ هذا الحوار راح ينوي أمراً ؟

من يدري ؟

وجُلّ ما نعرف انه، يوم افتتح رسالة الالهة في الارض،
أبى إلا أن يعتمد بمياه النهر الذي ينبع من احدى سلسلتي
لبنان.

وهكذا تكون ثلوجنا أوّل من قصد منا اليه.
عهدُ ذهنه بلبنان، عهدُ قلبه، بل جُماع روحه وجسمه،
عهدٌ قديم إذن.
وإن هو جاء إلى ارض صور وصيدون يستريح، فعنْ
سابق معرفة بجبل الطيوب: من حفظه اسمَه تهجئةً وكتابةً،
إلى تسريح النظر على قممه، إلى فتح الصدر لنسيمه، إلى
الاغتسال بمائه يترد.

— لهذا الجبل فضلٌ عليّ، كاد يقول.

ولو انهم اصغوا إلى تمتاته لربما سمعوها.
ولسمعوه يناجي صور منذ اطلت:

مَنْ هذه المشرقة كالصبح ؟

الجميلة كالقمر ؟

المختارة كالشمس ؟

المرهوبة كصفوف تحت الرايات ؟

« لم يُرد ان يعلم به احدٌ من الناس »، يقول مرقس،
ولكن الناس قصدوا اليه « فلم يقدر ان يستتر ».

هؤلاء اللبنانيون مُلِحِفون في الطلب.

ليتكلمون كأصدقاء، كمن لهم عليه دالة.

ها هي امرأة منهم تناديه:

— « ارحمني، ايها الرب ».

فيتضايق التلاميذ.

فتقول:

— « أغثني، يا رب ».

ولكن أنى لها أن تحصل على شيء والخبز يكاد لا
يكفي البنين ؟

إلا أنها تُصِرّ:

— « ان الكلاب تحت المائدة لتأكل من فُتات
البنين ».

هذه المرأة، ما حاجتها ؟

هي، ليس لها حاجة.

وانما لها بنت.

لسواها لا لها تلمس ؟ إنها لخليقة بالانتساب إلى
الوطن الذي نماها.

وما تُريد ؟

مسّ الظلام عقلَ ابنتها، فجاءت تطلب نوراً لهذا العقل.
لا كساء لُعري، ولا مسكناً لماوى، ولا مالاً لأعالة.

كاد التلاميذ يصيحون.

ولكنه اخرسهم، هذه المرة، بوجهه المتهلل وعينه
الباسمتين.

البنانية تطلب النورَ شفاءً.

كالارض في كل آن.

وتطلب منه ولو فتاتاً من الذي تحت المائدة.

— « لأجل كلامك هذا، قال، اذهبي ». لقد شفيت

الفتاة.

وكان لها النورُ جميعاً، سخياً كما على المائدة.

وعندما « خرج من تخوم صور » أبي، يقول الانجيل،

إلا أن « يمرّ في صيدا ».

تراه اراد ان يتعرّف اكثر إلى الشعب الذي كان أوّل من

ذهب اليه: خاطرةً في كتاب، ومنظراً حسناً، ونسيماً

منعشاً، وماءً به يعتمد ؟ والذي كان أوّل من طلب منه

النور بدل المأكّل والمشرب ؟

وأكيّد انه ما ترك أرض لبنان إلا وهو يتغنى:

تثمر الجبال سلاماً للشعب.

والتلال بُراً.

عودوا إليّ فأعوذ اليكم.

جربوني بذلك،

فافتح لكم كوى السماء،

وأفيض عليكم بركةً حتى لا توسع.

وتغبطكم كلّ الأمم،

لأنكم تكونون أرضاً شهية.

القرنة السوداء

من الارز يقصدون إلى « القرنة السوداء »، أعلى قمم لبنان. كثيرون انتهوا اليها واستمتعوا من علو ٣٠٨٣ متراً برؤية تمتد إلى جبال قبرص. اما حكاية الحب والحرب التي تُروى عن « القرنة السوداء » فلا يعرفها الا قلائل.

قصتها، آخر مرة عام ١٩٣٢، على راهبة عميقة الثقافة، رجل أوفى على الموت، ملتمساً منها ان تكتب عليها كتاباً. الراهبة لم تفعل. سوى أنها كانت، كلما ذكروها بالأمر، تنحدر على خدها دمة اشبه بلؤلؤة.

عام ١٩٣٥ أمر معاوية قائدُه سفيان بمهاجمة طرابلس.

فامتنعت عليه. فضرب حولها حصاراً. فهزئت به. حتى اذا
طال الحصار وعمل الجوعُ عمله الفاجع استنجدت المدينةُ
بامبراطور بيزنطية. فبعث اليها بأسطول يجلو اهلها جميعاً.
جُنَّ جنونُ الفتيان منهم. ورفضوا الذهاب، مؤثرين
الموت في مدينتهم الجميلة.

مِنْ هَؤُلَاءِ الْبَطْلُ حَوْرَيْلُ. كَانَ لَهُ زَوْجَةٌ تَدْعَى زِيْرِيَا،
(حَسَنَاءُ كَقَلْبِ الصَّبْحِ تَجَلَّلَهَا غَدِيرَتَانِ سَوْدَاوَانِ كَلِيلُ)
وطفلاً وحيداً يزقزق بنيساناته الخمسة تحت شجرة يتناقض
وشعر أمه ويقال من ذهب.

بعد فترٍ متقطعة من جدلٍ وضراعة، وتهديد بانتهار،
قدر حورئيل ان يُقنع الزوجة بأن تذهب والطفل مع
الذاهبين. ولكن، فيما كانت تسليخ الولد عن صدر ابيه،
قبيل ركوب البحر، هتف بها الصغير:

— دعيني هنا، فقد يحتاج ابي إلى من يجمع له النبل.
فيتجدد الجدل، وتروح زيريا تتوسل إلى زوجها ان
يستبقيا إلى جنبه، تموت ان مات وتحيا ان نجث
طرابلس.

ولكن حورئيل يأبى أن يسمع.
ولا يهدأ له بال حتى يراها تنزل إلى المركب.

وفي الآخر يُخرج من جيبه شاةً من الحرير الأخضر
ويلفها على عنقها الفارع:

— هذه، إياكِ ان تضيع. انها حُرُزٌ في عائلتنا. مسحته
أم جدّي على قبر المسيح. وما يَبْقَيْتُ معنا فنحن بخير.
قال هذا وعينا زيزيا الجميلتان تكبران من شدة التحديق
إلى الشاة. وما هي حتى تنزعها من عنقها وتلفها على عنق
الولد ثم تضمّه مُغمضة العينين.

المركب أبيض، وحده أبيض، فتذكر حورثيل يومَ
عرسه، اذ امتطى وعروسه فرساً وحده أبيض بين خيول
رفاقه الحمر والسود.

ما كاد المركبُ يغيب في الأفق وسط السفن والزوارق
حتى هبّت عاصفةٌ أقامت البحر بعيدة والقريب، ومزقت
أشرعةً في المرفأ.

ولكن حورثيل ظلّ متجالداً واثقاً بنجمة سعدة.

— اما تخاف ؟ سأله رفيقٌ له.

— عليهما ؟ لا. انهما محروسان.

انقضت ايام، ودخل جنْدُ معاوية طرابلسَ الخالية الا من
بعض العجائز — ومن البطل حورثيل.

كان شبةً وحيداً في مدينته المغلوبة. فاستشعر طعم الموت تحت أضراسه. ثم وجد نفسه خارج الأسوار، تائهاً في بساتين ما ابقى المحاصرون على عُصنٍ منها.

وعنَّ له أن يُصعد في الجبل. فهو يعرف أن العمارة البيزنطية لم تبتعد كثيراً. وقد يلمح بينها مركباً أبيض، فيرافقه بالنظر إلى البعيد، إلى قبرص بالذات. وفيما هو يتوَقَّل في التلال لاهثاً من تعب، مرتاحاً حيناً ودوماً غير متناس أن يتلفت جهة البحر، إذا بالعاصفة تهبُّ من جديد أقوى وأكل، فيتلطَّى بجذع زيتونة. ولكنه لا يلبث أن يشهد الأغصان تتقصَّف حوله وعليه، فيقفز إلى جذع شجرة أقوى. وما هي، حتى يُبصر بشيء يتطاير في الريح المُعولة، فيمرُّ بباله خاطرٌ مخيف، ولا يعود يعبأ بنفسه أيقى حياً أم يموت ! ويركض وراء الشيء، يركض بعيداً بعيداً.

انه ليتبينه الآن. هو الشالة الخضراء التي ربطتها زيزيا على عنق الولد. تراه متى التقطها سيجدُ عليها دماً أم ستكون كلها رسالة نعي ؟

الريحُ لا تنفك تحطُّ بالشالة وتشيل، ويكاد لا يقترب منها حتى تنقذف إلى النهايات. فيركض ويركض ويركض.

أيّ قوة أُعطيها في القفز ؟ كم ليلة وكم نهراً انقضت عليه ؟ كلُّ ما يعرف انه لا يزال قوياً وانه يركض وراء شالة خضراء.

ها هو الآن على مقربة من قمة القمم في لبنان. لطالما بلغها مع رفاقه وهو يافع. هي الآن مكسوة بالثلج، يفرق فيه إلى الركبتين فلا يأبه. ويتنشل نفسه بعنف، يكفيه تشدداً انه سيقبض على الشالة.

فقرة، فقرتان، ثلاث ويكون فوق. ويمدُّ ذراعاً ولكنه يقع مَغشياً عليه.

عندما يستفيق يجد اصابعه قد قبضت على الشالة. يقربها اليه، يشمّها، يقبلها وهو يجهد. انها هي هي، بلونها الاخضر، كما ودعها بنظراته ملفوفة على عُنُقِ الصغير. لا دَمَ عليها، ولكن احدى قرانيتها معقودة. فيفكّها. فاذا القرنة سوداء. انها تحتوي على خصلةٍ من شعر. شعر زيزيا الزوجة المعبودة. فيفهم انها هي التي ماتت ونجا الصبي.

ما يعمل ؟ تراه سيُعطي ان يعود إلى طرابلس ينقض. على القائد الذي كان سبياً في موت التي لا أجمل منها الا هي ؟

ها هو الآن يُدرك أنه محطّم وان الموت لن يُمهله. انه
ليتجالد في عمل أخير وبعد لأيٍ يسحب خنجره من
نطاقه ويروح يحفر في الصخر الذي امامه على قمة القمم،
بلغتهم اللغة الآرامية، سطرأ، ثم آخر، ثم ثالثاً.

«القرنة السوداء من الشالة، يكتب، انتهت اليّ هنا.
» إن اعوزتني الحياة فعلى ولدي، هو، ان يكون بطلاً.
» اعلى منا شرفاً لن تكون هذه القمة.»

وحاول أن يجرّ نفسه صوب طرابلس؛ الا انه لم يتعد
كثيراً.

وبعد أيام كان نسرٌ يجثم على جثة.
عشرون سنةً انقضت، واذا بفارس اشقر يتسلق الجبل.
في عدد من الفرسان. فتوقفهم في ضاحيةٍ من طرابلس
امراًً عجوز.

— ابنُ حورثيل! تقول، ابْنُه أكيداً! منذ ثلاثين سنة
شهدتُ اباك، وهو شاب، يركب مثل هذا الجواد، في
مثل هؤلاء الرفقة. لكنه، هو، كان، امامه على السرج أجمل
نساء لبنان. حملها إلى فوق لتغمر الشمس وهي على قمة
القمم. انت اين عروسك!؟

وتطاولت العجوز بعنقها إليه، وأكملت هامسة:

— وكانت طرابلسُ لنا.

فخفض الشاب بصره. وانفجرت على عينيه دمعان
كبيرتان. ثم لكز جواده.

— كانت تتكلم على أمي، قال لرفاقه، أمي التي غرقت
في البحر، لكنها تكلمت أيضاً على شيء أعظم.

وفوق، على قِمة القمم، فيما هو مكبٌ على أحد
الصخور يحلُّ حروفاً بعينها عمل فيها الثلج والزمن، هاجمه
نسرٌ مسنّ، فصوّب رفاقه إليه نبالهم، فهتف بهم:
— دعوه لي فقد يكون بيننا ثأر.

سوى انه اكتفى بأن جفل النسر.

— من يدري ؟ هتف به، فقد لا تكون انت.

ويقال إنه، عندما نظر في عيني النسر لآخر مرة، شهد
في قعرهما شيئاً قفَّ له شعرُ رأسه، فندم لأنه لم يمزقه
تمزيقاً.

بعد أيام كان الشاب في دمشق في حضرة معاوية:

— مَنْ أنت ؟

— لبناني. ولدتُ في طرابلس وعشتُ في بيزنطية.

— وتريد ؟

— أن أعود إلى مدينتي مع بعضٍ من عائلاتها.

— هل لك علينا ثار ؟

— ثارات.

— منها ؟ سأل معاوية مُعجباً بشجاعة الشاب.

— منها أنك، بعد أن جلونا عن مدينتنا، اسكنتها جالية من اليهود أولئك الذين تسبّبوا في قتل نبيّك.

وتأثّر البطل الأموي للجواب وقال:

— ليؤدّن لهذا الفتى في الدخول إلى طرابلس، هو ومن يشاء.

كان، في المدينة، إلى جنب الجالية اليهودية، حاميةٌ أموية يستدعون بعضاً منها إلى دمشق، على جناح السرعة، كلما احتاجوا إلى نجدة.

وبعد نصف قرن بالضبط من فتح المدينة، أي عام ٦٨٥ — ومعاوية قد لقي وجه ربه وبعضُ الحامية متغيّبٌ في دمشق — ثارت طرابلس.

وبعد أيام كان قائدُ الثورة عند عجز الضاحية، وهو على جواد أبيض في رقعة يركبون الخيول الحمر والسود. فاذا العجز قد أسنت كثيراً. لكنها عرفت. فقالت:

— هذه المرّة، معك عروسك.

— نَعَمْ، وسأُعرِّفها إلى أبي. وسأقول له: عادتُ إلينا طرابلس.

وتكبر عينا العجوز:

— ماذا ! حورثيل مختبئ فوق ؟!

فيخفق الفارسُ الأشقر غصّة:

— أبي لا يختبئ. لكنه على كل حال فوق. وشعُر أمي،
أيضاً، فوق، في القرنة السوداء.

فخجلت العجوز، ثم حاولت ان تعوّض، فتقدّمت من
العروس تتبيّن لها ملياً:

— جميلة، قالت له، جميلةٌ مثلها. لا تنسَ أن تدعها
تغمزُ الشمس وهي تشرق على قِمّة القمم.

رَبِّكَ

كان أشور بنيال يلهث كحصانه، وهو يتقدم الجيش في ذلك الحرّ الكاوي، والصحراء تكبر أمامه على البعيد، تأبى ان تنتهي.

أتراه يتابع الاياب صوبَ أشور ام يتوقف ؟

— اين نحن من الفرات ؟ سأل الملك.

— لم يبق الا ان نُبصر بمجره، قال أحد القواد.

فتنفس أشور بنيال الصعداء، وخفف من سير الجواد.

الجيش الآن يغطي الضيفتين وافراذه منبطحون على الارض يعبّون من المياه الجارية. قلائل منهم يتأملونها

يتساءلون: أهي نظيفة كفافاً ؟ ولكنهم لا يلبثون أن يشربوا.
فرغوا من نَصَب خيام المَلِك، انيقة مزركشة شامخة
القباب. فرشوها بالطنافس وعلّقوا على جُدُرِها الارجوانية
أعلاماً وشارات. ثم راح العبيد يظهرون منها ويغيبون بجلبة
وخفة، ينقلون فضي الآنية وشهيّ المأكّل.

— بين الاميرات الصُوريّات، اسيراتنا، واحدة شقراء
فارعة القامة. جئني بها، قال آشور بانيبال لكبير مرافقيه. لا
تغلظ لها القول إنّ تمتعت، ولكن لا تُعذّ بدونها.

لم تطلّ غيبة الرجل. وها هو، من الخارج، يُسمع
صوته الأَجَشّ، يصطنع الحديث مع الحجاب كأنما يُطمئن
المَلِك إلى انه نجح في مهمته.

وتشقّ باب الخيمة، إلى حضرة آشور بانيبال، حسناء في
العشرين من نيساناتها. لكأنّ شعرها سبائك من ذهب
صففرته غدائر مترصّنة تتدلّى على رأس ولا آثق، أما قامتها
المشيقة فطيف من الاطياف.

— ما ظننتك على هذا الحسن ! هتف المَلِك
بالأشورية.

— شكراً، أيها المَلِك.

— ماذا ! او تتكلمين لساننا ؟

فاطرت الأميرة لشبه الاعجاب يُسمعها اياه عاهلُ
أشور. ثم قالت ببساطة من تُحدث صديقاً:
— ليس من صيدوني لا يُجيد ثلاث لغات.
— وانت ؟ ساءل متحجباً.

فاستقلت لهجته وراحت تفكر بان لا تجيب، ولكنها
عادت تخنق حنقها بالجواب:
— أنا، أعرف ثمانِي.

وفجأة فطن الملكُ إلى انه كان، منذ دخولها، ما يزال
مشدوهاً بعينيها الخضراوين. فاستعاد لهجة الواصل:
— اقتعدي هذه الطنفسة، يا عزيزتنا الأميرة. هنا، قبالي
هنا، إلى هذا الخوان. انت غير اولئك. كأنتكِ غيرُ سبيّة
في معسكر أشور.

— غيرُ سبيّة ! لو انني هكذا لما كنتُ في خيمتك.
— اين تريدان ان تكوني ؟ في قصر ؟

— بل في صور، في بلاط اخي.
فاصطنع الملكُ الابتسامة، ثم ما لبث ان اعتراه
اضطرابٌ اشبه بعاصفة.

— صور صور ! الحاضرة التي تأتي استسلاماً.

فاكملت رنزا:

— وستستمرّ تأبى.

— من قال ؟ صرخ الملك.

— أنا قلت. وأجدادك قالوا من قبل. وآباؤك. وأنت نفسك تقولها اليوم.

فعاد المَلِكُ إلى هدوءٍ ماكر :

— أجل أنا عائدٌ من حصار لصور لم أصبر له حتى يؤتني ثماره. ولكنني جئتُ بك وبرفقات لك يجري في عروقهن دمٌ مَلَكِي. وجئتُ أيضاً بآبناء ابطال، بابن الملك بالذات. اسيرات واسرى سأحطّمهم، ان تململت صور في غير صالح أشور. احطّمهم كما افعل بهذه الكأس.

وضرب أشور بانيال بكفه على كوب ماء كان أمامه فطحنه، ولكن دماً غزيراً نقر من يده فصرّج ثوبه والطنفسة التي عليها يتكى.

وسارعت الاميرة الصورية إليه، امرت عبداً بأن يأتي بماء كثير وضما.

ولما تأخر جئت أمام الملك ومزقت اطرافاً من البستها الفضفاضة، ثم صبّت على الجرح من شراب الأباريق، فيما كانت أسنان أشور بانيال تتأكل شفثيه تجلّداً.

وإذ انتهت من شد الضماد راح يضحك:
— رأيته، قال، رأيته كيف أن شقيقة ملك صور
تخدم ملك آشور.

— تخدم ؟ ان لعملي مغزى آخر، يا آشور بانيبال. انت
الآن جريح. اما المقاتل الذي في ثوبك فقد كان له ان
يذوق طعم نبالنا وحجارتنا، ويتعرف إلى نيراننا الساحقة
الماحة تحت أسوار صور. تقول انك اسرت نسوة منا
بينهن اميرات ؟ شرف لسلحنا العريق أن تتقلده النسوة
أيضاً.

« بلى، عقب انكفاء إيلولاي إلى قبرص، ارتقى عرشنا
صنيعتكم إيتوبعل. لكن حليفنا مصر ضمدت جراحها في
سهل أكرون وصمدت لكم في مصر السفلى حيث تراجع
سنحريب إلى نينوى هارباً أو يكاد.

« ونعمنا بالسلم بفضل دهائنا يوم سلحنا مصاب.
حتى ثار عليكم عبد ملكوت عاهل صيدون.

« تغلبتم عليه نعم، ولكن بعد أن فصدكم فصداً. ومات
شريفاً بحد السيف.

« وهادنتم بعلاً في تسوية وتبادل منفعة. لكن صور ما
لبثت ان ثارت، يؤازرها تحالفها مع تاهرقا المصري.

« حاصرتموها. ولكن عبثاً. ورحتم تنقشون على
الانصاب انكم قدتم فرعون مصر من شفته. ومثله ملك
صور.

« أقوال... أقوال... بها تخذعون الناس، وانما انفسكم
تخذعون.

« وجزيرة صور، صور الأبطال، ما تزال بكرا لم
تُمس.

« وهذا أنت تخف إلى غسل العار. تهاجمها. فبماذا
تعود؟

« ببعض نسوة وبكأس متى شئت تحطيمها، مهدداً
صور، جرى الدم من يدك سكيناً.

« حاول النوم، حاول النوم، ايها الملك. انت تعب، يا
صديقنا الأشوري، لقد نرف منك دم كثير.»

* * *

— جثني بالامير يهاف، صرخ أشور بنيال بتابع له
عملاق، جثني بيهاف ملك. ما بالك دهشاً كالوتد؟ جثني
بأسيرنا ابن ملك صور.

فلم يتحرك الرجل. وبعد هنيهة انحنى حتى لامس
الارض، ثم قال:

— عفوك، يا مولاي... قابلكه عمته، عمته رنزا بعل،
وكانت متأثرة كهيبة، فاذا هو غاضب. ولقد ضرب حارسه
بحد السيف فصرعه.

— إلى هنا ! قال أشور بنيال بمكر، تركنا له سلاحه
مبالغة في الاكرام، فبالغ بدوره...
كان الامير يهاف ملك مديد القامة، نزيهاً لا يطبق
مزاحاً.

هو من رهائن أشور بنيال وأسراه. علق في فخ
الاشوري نتيجة ثقته المسرفة بما له من فصاحة لسان. ظن
انه، لمحض مقابلة الملك، سيقنعه بفك الحصار عن صور
وبالعودة إلى بلاده. ولكنه لقي غير ما كان ينتظر: أمر
أشور بنيال بوقفه واقتياده في ركابه إلى عاصمة أشور.
وفيما كانوا يدخلونه على الملك نهض أشور بنيال
مصطنعاً التكريم:

— قتلت أحد حراسك ؟ فاجأه بالسؤال، وهو يدلّه على
مقعد يقتعده، لا بأس لا بأس، ولاولاد الملوك حق على
اعناق العاديين من الناس.

« كنت اعرف الحارس. كان عبداً واعتقته بيدي.

« وما انت تعتقه من الحياة.

« حسن... وقد تكون مُفضلاً عليه أكثر... »

« كان سمجاً أحياناً. اتراه أغلظ لك القول ؟ »

— لا، أجاب يهاف ملك. كان دوماً جَمّ الكياسة.
ولكنني اغمدتُ في صدره سيفاً عجزتُ عن اغماده في
صدره آخر.

فقهقه أشور بنيال قهقهة تجلّد، ثم راح يُرَبّت على
كتف الأمير الصوري ببعض العنف، كأنما يذكره بأنه هو
هنا في أشور في قبضته يأمر بدقّ عنقه متى شاء. وقَدّم له
كأساً:

— إشرب، إشرب. ولكن قل لي، الآن، وقد فرّجت
عن كُرْبِكَ بقتل هذا العبد، قل لي لماذا خرجتُ من
الأسوار في تلك الأمسية ؟ أصبح انك كنت تجدّ عندما
طلبت إليّ فكّ الحصار عن صور ؟

فقال يهاف ملك :

— كنتُ واثقاً ببراهيني.

فازداد أشور بنيال ضَحِكاً. واستطرد:

— صدّقني لم أكن استمع إليك.

« لم يكن يمرُّ بيالي أنكم حقاً ستثقون بي... وأن

بوسعي وضَعْ يدي على أحد منكم... عليك أنت مثلاً...
أنت ابنُ المَلِكِ... هذا أمر له ثمن...

« لَقَدْ زِدْتُ حَاشِيَتِي بِمَنْ يَجْرِي فِي عُرُوقِهِمْ دَمُ
الْمُلِكِ.

« وَيِنَّهُمْ أَمِيرَات... »

« أَمِيرَاتٌ حِسانٌ كُنَّ يقاتِلن كالرجال.

« هُنَّ الآنَ مثلك في أَسْر.

« كَانَتْ عِنْدِي مِنْذَ هَنِيئَةٍ أَحَدُهُنَّ... شَقِيقَةُ الْمَلِكِ... »

— عَمَّتِي رُئْزَا بَعْل.

« لَقَدْ أَخْبَرْتَنِي بِكُلِّ شَيْءٍ ».

— بِكُلِّ شَيْءٍ ؟!

— أَجَلْ، وَكَيْفَ أَنْكِ تَلَاَحِقُهَا كَطِفْلٍ. وَكَيْفَ رَقَّتْ

لِحَالِكَ مِنْذَ إِسَابِيعٍ، عِنْدَمَا، فِي خِيَمَةٍ عَلَى الْفُرَاتِ، رُحْتُ
تَبَجَّحَ فَمَزَقْتَ كَفَّكَ بِتَحْطِيمِ كَأْسٍ.

— أَوْ مَا قَالَتْ أَكْثَرُ ؟

— مَا مِنْ أَكْثَرٍ، أَيُّهَا الْمَلِكُ.

فَرَّاحَ أَشُورَ بَنِيَالَ يُرْسِلُ أَصَابِعَهُ فِي لَحِيَّتِهِ وَيَهْزُ رَأْسَهُ
كَأَظْمًا غِيظًا.

ثم عاد يتظاهر باللطف:

— الأميرة عمتك في شرخ صباها... حسناء... حسناء... جداً...

— كقلب الصبح، أكمل يهاف ملك. انها معبودة صور. ولكن لا لملاحتها وحسب.

« هي بطة في الابطال.

« إياك أن تطمح إلى شيء، يا آشور بنيال، أن لعمتي الفتية هذه كرامة خليقة برأسها الأشقر الجميل.

« بعيدة هي عن حماية جيشنا. ولكن لها من نفسها جيشاً ».

— أولاً ينفع فيها الوعيد ؟ سأل الملك بين مستفهم ومهدد. ورؤية العبد مضرّجاً بدمه أولاً تحفزها إلى عبرة ؟ نحن أيضاً لنا مثلك سيف نغززه في صدور الضعاف ان شئنا.

وفجأة انتقل الملك إلى لهجة أخرى:

— ألا تؤثر في عمتك حلي وهدايا ؟ ان انوال آشور تنسج أيضاً أرجواناً. وفي خزائنا ما يختم اصابع ألف ملكة بالزمرد والسفير والياقوت.

« أَعْرِضْ عَلَيْهَا إِنْ تَكُونُ زَوْجَتِي الْأُولَى. أَجِبْ، يَا
يَهَاف، مَا لَكَ لَا تَحِيرُ؟ »

فَقَالَ يَهَافُ:

— أَسْتَمِعُ إِلَيْكَ تَحَاوُلَ الْفَصَاحَةِ، يَا أَشُورَ بَنِيَالَ... هَذِهِ
بِضَاعَتِي...

— مَا تَعْنِي؟ صَرَخَ الْمَلِكُ غَاضِبًا.

— أَعْنِي إِنَّكَ بَدَأْتَ تُجِيدُ الْقَوْلَ. اسْمَعْ: بِقَدْرِ مَا هِيَ
نَاعِمَةُ الْكَلِمِ، عَمَتِي رَنْزَا، رَنْزَا بَعْلٌ، عَنِيدَةٌ. وَفِي صَمَتِهَا،
أَحْيَانًا، جَوَابٌ وَلَا كَشْكُ السَّنَانِ فِي النَّحْرِ.

فَازْدَادَ أَشُورُ بَنِيَالَ رِقَّةً. وَرَاحَ يَقُولُ:

— عَرَفْتُ ذَلِكَ. عَرَفْتُ. سَاعِدْنِي عَلَيْهَا، يَا يَهَافُ مَلِكُ.
وَلَكِ بِالْمُقَابِلِ حَرِيَّتُكَ.

— رَنْزَا بَعْلٌ تَتَزَوَّجُ عَدُوَّنَا؟ إِنَّكَ لَا تَجِدُ، يَا أَشُورُ
بَنِيَالَ. عَلَى تَصَرُّفِ هَذِهِ الْمَرْأَةِ يَتَوَقَّفُ مُسْتَقْبَلُ الشَّرَفِ فِي
مَمْلَكَةِ صُورِ.

— وَإِنْ صَدَّقْتُكَ إِنَّهَا نِصْفُ مُقْتَنَعَةٍ؟

فَقَهَقَهُ الصُّورِيُّ:

— عِنْدِي أَصْدَقُكَ إِنَّكَ جُنُنْتُ.

فكاد أشور بنيبال يخرج عن رباطة جأشه. ومدّ يده إلى
كأس أمامه يستعملها كسلاح. سوى انه عاد وآثر تجلّداً
ممزّقاً. وبذل أن يضرب الأمير بالكأس قدمها اليه.

— اسمع، يا ضيفنا العزيز، سأجيء برنزا بعل إلى هنا،
وتصدقك أذنك انها راضية.

— عبثاً، أيها الملك، عبثاً تحاول. أنا أعرف رنزا بعل.
فرفع الملك صوته وانفجر بالغضب كولد:
— ولكنها جثت عند رجلي... يوم راحت تضمد
جراح يدي... أو يمكن أن لا تكون أحبّتي؟
فأجاب يهاف ملك بيرودة:

— فعلت إشفاقاً على جريح. والجريح عندنا هو كذلك
ولو عدّوا. اما إن كان قد راودها هاجس آخر... هاجس
امراة...

— إذن؟! هتف الملك بأمل.

— إذن تكفر عن ضعفها بالنار! تُحرق!!

— من يحرقها؟ إنها في عصمتي؟

— هي تفعل. حرائر صور لا يمحو ذلّهن سوى النار
يجسّنها برضى باسمات.

وما هي حتّى دخل عبدٌ يقول:
— ماتت الأميرة رنزا بعل. أشعلت ناراً والقت بنفسها
في اللهب.
كاد أشور بنيال يسقط على الأرض، فرحاً مكره
ومحطماً قلبه.

زَارَنَا التَّارِيخُ

ذاتَ يومٍ قالت فتاةٌ صغيرةٌ لشاعريٍّ من بلادها كانت
تُحِبُّهُ وهو لا يدري:
— هذا الليل، والصُّبْحُ يكاد ينبُج، حلمتُ حُلماً عَجَباً
ولكنه جميلٌ !.

« قال... أنا مَلِكَةٌ بِعَرْشٍ وصولجان، وزارني التاريخ.
« قال... والتاريخُ، يا شاعري، لم يكن هذا الكتاب
الثقيل الذي أحمله معي كل يوم من المدرسة وأروح أجهد
لإدخال صفحاتِهِ في رأسي الصغير. لا وإنما كان — كما
يشاء الحلم — امرأةً ومدينةً معاً.

« قال... دخل عليّ التاريخ وأنا في قصر البلّور، مقرّي الشتوي المغمور أبداً بالثلج، أفرج من داخله على مفاتن الطبيعة ولا أحسُّ قرسةً من برد.

« بلى كان التاريخ اثنين: صبيّة حسناء تُسمّى أورب ومدينة قديمة تدعى بيلوس.

« أهلاً، بالتاريخ، قلت.

« قال... ويُفتّح الحديث ويروح التاريخ يتكلم.

« كيف ؟ هذا، يا شاعري، ما اعجز عن نقله اليك.

« أو يكون التاريخ امرأة ومدينة في وقت معاً، ويروح يقصُّ القصص من فمين مختلفين، واقدّر أنا التلميذة الطفلة أن أستعيد جميع ما قال ؟

« ولكن ما لنا ولهذا. وعلى أيّ حال سأحاول.

« قال... كانت الصبية التي تدعى أورب بيضاء ولا كالغمام، بينما المدينة التي تدعى بيلوس مباحدة في القَدَم متعدّدة القباب شامخة. أورب هي بنت الملك أغثار عاهل صور ذي الاولاد الثلاثة الأبطال، أولئك الذين يعد طموحهم من أمامي حدود الوجود، وبيلوس هي حاضرة الدين والثقافة القائمة على شاطئ ساحر فوق جبل صغير، جُبيل له أسلاك من ذهب تمتد إلى آخر الأرض.

« قال... ونظر التاريخُ اليّ مقطَّبَ الحاجبين، ورفع
صوته بوجهي: كيف تدَّعين، يا ملكة الزمان، أنك واقفةٌ
على التاريخ؟ »

« وما هي حتّى أخذته سورةٌ من غضب، وخيل إليّ أن
صراعاً في داخله نشبَ بين المرأة والمدينة.

« بيلوس تقول إنها أقدمُ مُدُن الدنيا. يتناقلون قولها هذا
مؤرخاً عن مؤرخ. إنها أولى بنات إيل — إله الزمن —
تجرأتُ وانحدرتُ من عن أصابعه بينما كانت شقيقاتها
المُدُن وجِلاتٍ مرتجفات من برد.

« كان ذلك حوالي أوّل الدهر، ووالدُها متكىٌّ يكرع
الهواء في سفح لبنان.

وأورب تقول إنها كانت كلّ يوم تلهو في أترابها على
الشاطئ، فيراها بَحَارَةُ المَمْلَكَةِ فيُجَنُّون، وينقلون حديث
غرامهم بها إلى الموج، وهذا ينقله إلى شفا المعمور.

« بيلوس كَبُرَتْ وأصبحت حاضرةَ القداسة والفكر في
الدنيا، يقصد اليها الناس من الأربعة الاقطار يأخذون عنها
حُبَّ المغامرة.

« قال... واهلها لم يبنوا فقط اجملَ المعابد والملاعب
وقبابَ الغرانيت وأعمدة المرمَر تُغني مع الريح والنور

والصاعقة. لكنهم، فوق ذلك، تجرّأوا على اقتحام مجاهل السرّ، غامروا في داخل النفس، غامروا في قلب الله.

« كُلُّ هَذَا فِي الْحُلْمِ، يَا شَاعِرِي، فِي الْحُلْمِ دوماً. لك أن تُصَدِّقَ وأن لا تُصَدِّقَ. لكنّه هكذا كان.

« وَأُورَب سَمِعَ بِهَا إِلَهُ الْآلِهَةِ فِي الْغَرْبِ. وقد يكون بطلاً سَمَّوَهُ هَكَذَا لَخْبِرَتَهُ بِصُنْعِ الْآدَمِيِّينَ مِنَ الصِّلَصَالِ أَوْ بِالْعَابِ الصَّاعِقَةِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ.

« هَذَا قَامَ إِلَى مَمْلَكَةِ أَبِيهَا، وَبَحِيلَةٍ غَيْرِ بَارِعَةٍ خَطَفَهَا وَطَارَ بِهَا فَوْقَ أَوَازِي الْبَحْرِ.

« وَلَوْ رَوَيْتُ لَكَ، يَا شَاعِرِي، قِصَّةَ الْحِيلَةِ، كَمَا انْفَضَّحَتْ لِي فِي الْحُلْمِ، لَمَنْعَتَنِي مِنْ إِتِمَامِ الْكَلَامِ.

« بَيْبِلُوسُ رَاحَ النَّاسَ يَتَلَقَّنُونَ عَلَى يَدَيْهَا الْعَجَبَ، يَتَذَوِّقُونَ جَمَالَ مَا تُبْدِعُ الْأَيْدِي، يَطْرُقُونَ بَابَ الْمَجْهُولِ، وَلَكِنْهُمْ خُصُوصاً يَتَعَرَّفُونَ إِلَى الْأَشْيَاءِ الَّتِي لَا عَهْدَ بِهَا فِي الْأَرْضِ. الْخَوَارِقُ، مِثْلاً، « جُنُونُ اللَّهِ الَّذِي فَوْقَ عَقْلِ الْبَشَرِ »، كَمَا يَقُولُ بُولْسُ. حَتَّى لَيَزْعُمَ وَاحِدٌ اسْمَهُ رَعْمَسِيْسُ أَنَّهُ « قَدَّمَ لَهَا، كَمَا فَاحِرٌ وَكُتِبَ، هَدَايَا تَفُوقُ رَمْلَ الْبَحْرِ ».

« وَأُورَبُ قَامَ أَخَوَاتُهَا الثَّلَاثَةَ كُلَّ إِلَى قَارَةِ يَطْلُبُونَهَا مِنْ

البر والبحر، من البشر والآلهة. وكان لواحد منهم أن يحمل في ركابه النار والحرف والشعر والمغامرة، يحمل ذاك الذي عاد وسُمِّي المدينة يُبدرها حيث نزل.

« بيبلوس المدينة قالت جديداً، علّمت ان الآلهة ليسوا آلهة، وان ليس هناك سوى إله أحد يقدر على كل شيء، وان للانسان نفساً تهزأ بظلمة القبر، تبقى إلى الأبد.

« وارتاح الناس، ما دام أن لهم من يقدر على كل شيء وانهم إلى الابد باقون.

« وأورب المرأة استوحشت، وهي في وحدتها بعيدة عن اهلها وزوجها مشغول عنها بخلق الناس والآلهة. وهكذا براها الحنين إلى جَبَلٍ فوق صور وإلى جنائنه المعلقة عند الغمام.

« ذلك ان إله الآلهة كان قد نقلها إلى قارة بدائية لا مدنيّة فيها، قارة اشبه بقاع صفصف. ولكنه، لما رآها تكاد تدبل نضارثها وتيس من كآبة، قال: إكراماً لعينيك سأجعل هذه القارة الصحراوية اجمل قارات الدنيا، وباسمك أُسميها.

« قال... ومن يومها صارت القارة هي أورب وصارت أورب هي القارة.

« كيف ؟ هو الحلم، يا شاعري، هو الحلم فلا تسأل.
« وذات يوم نسيت بيلوس كل شيء عن تاريخها الا
فصلاً واحداً.

« كانوا على أرضها قد ألفوا أول كتاب عرفه العالم،
فراحت جميع لغات المدينة تدعو الكتاب « بيلاً » مشتقة
اسمه من بيلوس.

« كذلك لم يعد احد يسمع باورب، بنت ملك صور،
وانما بات الجميع يتكلمون على اورب القارة التي هي
نبع المدينة.

« بلى، بيلوس المدينة صارت الكتاب، واورب المرأة
صارت المدينة ».

« وراح التاريخ امام عرشي يتغنى بانه هو الكتاب
والمدينة معاً. ويُسمي نفسه بيلوس مرةً ومرةً أورب،
حتى لقد حرث كيف يكون الاثنتين معاً. ولكنه الحلم هل
أصدق الحلم ؟ ».

كان الشاعر يُصغي إلى الصغيرة الفطنة تقص قصة ليلة
قضتها في صحبة الخيال.

أخيراً قال لها:

— هذه المرة صدقي الحلم، يا فتاتي، وانما، على هذا

الكوكب الذي يُسمّى الأرض، ليس سوى اثنين: الكتاب
والمدينة، بيلوس واورب. وكلتاها من عندنا، من
الأرض التي نَمَتُك. إنها سنّاً أكبر منك بقليل. ذلك
عندما لا تتناسين ان تكوني ملكةً بعرش وصولجان.
« الحقيقةُ في الناس ؟ إنها لتَبْلُغُ أحياناً حَدَّ الحلم ولا
يصدقون ».

قلب الله

كان عروسان يحضران صلاة المساء، في كنيسة
الموارنة، بباريس. وكان اليوم يومَ أربعاء، فلفت العروسُ
قولَ الكاهن: « يا رب احفظ لبنان »، فسأله بعد الصلاة:
— لمَ تَخَصُّونَ الأربعاء بهذا الدعاء لوطنكم ؟

فحوّلها فوراً إلى مخطوط قديم اتفق ان كان أمامه على
المكتب. ولَمَّا لم تفهم من خطوطه ولا كلمة راحت
اصابعُ الكاهن تمرُّ على كل سطر تترجم النصّ بتقوى.
« ... في قديم الزمان، كان جبلٌ يعيش تحت البحر،
تُعشّش فيه الاسماك وينبت المرجان الجميل.

« كان الجبل وديعاً ولكن على أنفة. مما أدى به إلى نزاع مع بركان يسكن في الجوار. وكاد التنافس يتفاقم لولا أن فضل الجبل هجرة المكان.

« — يَمْنَةُ، قال في نفسه، أم يَسْرَةُ ؟ لا هذه ولا تلك. وسأَمْضِي صوب العلاء.

« ها هو الآن يَشْقُ اليمّ تودعه الاسماك، صويحبائه منذ القدم، وداعاً الابد. الا طائفة منها نَزَرَةُ عدد. وعبثاً يروح يُقْنَعُهَا بأن لا قَبْلَ لها بالعيش في بحر الهواء. فتأبى الا أن تكون، ولو مدفونة، حيث تَشْمُخُ قِمَمُهُ.

« أخيراً إنصاع لها لا يطيق رَدُّ سؤل.

« وظل يرتفع في ملاعب الريح حتى دنا من الشمس، فغمزته أن توقّف. فقال: « آمنتُ بالنور أطيعه ». وتوقف.

« وبات ليلته الاولى لم يَغْمِضْ له جفن. إذ أخذت النجومُ تحجّه زائرة: الزهرة في الطليعة ثم رفيقاتها. ويقال إن عطارِد كاد ينسى نفسه في السفح عندما ازِف موعد الإياب.

« وقُبيل الصبح — وكان ذلك يوم الأربعاء — لاحت له، في الأفق العالي إلى الشرق، غمامة تغدّ السير. وعندما قربت منه تبين أنها أربعة نسور.

« وفوق أول قِمة واجهته فَتَحَتِ الكواسِرُ برائثها تُفَلت
بذرةً من حَبِّ عجيب لم يكد يمسُّ الثرى حتى راح يُطلِع
شجراتٍ لا عهد للارض بمثلها. وكان يرافق نموها صوتٌ
يقول: « هديةُ الربِّ ».

« وما هي حتّى كانت غابةً كثيفة، شامخةُ الاعراف،
تغطّي الجبل من قِمة إلى سفح.

« وفي ظل بعض الغصون، توقّف الاربعةُ النسر
وترجّلت من على اجنحتها فتاةٌ كقلب الصبح.

« راحت الفتاة تسرّح نظرها على عطفات الجبل فتَهزُّ
رأسها استحياساً ثم تمدّ يدها إلى أعناق الكواسِر ترتب
عليها. وفيما كانت دمعان تتلألآن عند هديها قالت:

« — لك الحمد ربّي، يا حنان، يا إله السماوات.

هديتي الى اجمل بقاع الأرض.

لن أنسى.

سأكون وفية.

باسمك سأدعو هذا الجبل.

فيخفق بالحب كقلبك.

« لبّ حنان » منذ اليوم يُدعى « لب أنان »، « قلب الله ».

« ثم التفتت إلى الأربعة النسر وبايماءة سعيدة أمرتها

أن « انطلقى في طلب مأكلٍ لي ومشرب ».

« وعند الظهيرة، كانت الكواسر الأليفة تحطُّ تحت
الأرز من جديد، وقد حملت غذاء الحسناء دِدْتًا أوَّل من
سكن لبنان.

« سوف تأخذ دِدْتًا من الجبل ان لا تنام على ضيم، أن
تشغف بالرحيل صوب العلاء. وسيظل يرنّ في أذنيها نداء
البحر، مهد جبلها، اما الجبل فيتعلم منها كيف يكون
موطنُ الذين رَبُّوا على أجنحة النسور.

« وتبني دِدْتًا فردوساً في جوار الغمام تستنبتُه أجمل
الزهر وتقيم فيه آلف الطير وأشدّ الحيوان.

« وتكرّر السنوات هائثة.

« حتى يوحش دِدْتًا أن لا إنسَ في الأرجاء التي
تجاورها، لا إنسان يحنو على صدرها وتستمع إلى خفقان
قلبه.

« وتحلم بأن يكون وطنها أسبق الأوطان إلى إيواء
الخلقة العاقلة.

« ما هي من الأرض تلك التي وُلدت، لا يُعرف أين،
على أجنحة الأربعة النسور. فلتنطلق الأربعة النسور صوب
بعض النجوم تجيئها بالأمير الفتان الذي سيمدّ إليها يدين

نَحْشَتَيْنِ كَصَخْرِ الْجَبَلِ، بِهِمَا يَبْنِي مَعَهَا أَجْمَلُ مَمَالِكِ
الْإِنْسَانِ وَأَبْعَدُهَا سَطْوَةً فِي الْكَوْكَبِ الصَّغِيرِ.

« وَيَكُونُ عَرَسٌ عَظِيمٌ عَلَى قِمَّةِ جَبَلٍ عَظِيمٍ ».

وَمَا إِنْ كَفَّتْ أَصْبَعَ الْكَاهِنِ عَنِ السَّيْرِ عَلَى الْقَرْطَاسِ
الْقَدِيمِ، تَعْلَنُ نَهَايَةَ الْقِصَّةِ، حَتَّى كَانَ الْعُرُوسَانِ قَدْ تَبَادَلَا
نَظْرَةً مَلُؤَهَا الْفَرَحُ لَاهْتِدَائِهِمَا إِلَى « دِدْتَا » اسْمًا لَوْلَدِهِمَا
الْبَكْرِ إِنْ هُوَ كَانَ بَنْتًا.

سَوَى أَنْ الْعُرُوسَ مَا لَبِثَتْ إِنْ ارْتَبَكَتْ وَقَدْ خَطَرَتْ لَهَا
خَاطِرَةٌ بِالذَّاتِ. فَسَأَلَتْ الْكَاهِنَ:

— وَلَكِنْ قُلْ لِي، يَا ابْتِ، أَوَّلًا تَذَكُّرَ الْمَخْطُوطَةِ اسْمِ
الْأَمِيرِ الَّذِي جَاءَ مِنْ بَعْضِ النُّجُومِ لِيَتَزَوَّجَ دِدْتَا ؟

لَا، أَجَابَ الْكَاهِنُ، لَيْسَ فِي هَذَا النَّصِّ سَوَى اسْمَيْنِ
اِثْنَيْنِ: « دِدْتَا » حَسَنَاءِ الْأَرْبَعَةِ النُّسُورِ، « وَلَبَّ أَنْان » قَلْبُ
اللَّهِ.

وَتَبَادَلُ الْعُرُوسَانِ نَظْرَةً ثَانِيَةً مَلُؤَهَا الْفَرَحُ.

إِيلُولَهِ

— أنتَ بنفسِكَ ؟ لا ورحمك.

بهذا ضرعت إلى الملك إيلولاي زوجته الحسناء، فيما
كان يُفلت من يديها.

عبثاً كانت قد حاولت اقناعه بأن لا يترك صور، صور
الجزيرة.

ومن يدري ؟ فقد يكون بين البحارة فوضويٌّ أشثوري.
والنزول إلى الأسطول مجازفة. والملك البطل هو عندهم
رمز الصمود وقائده، فإن أصيب بأذى باتت صور في
خطر.

أشور يومئذ تعرض أبهظ المكافآت على الذي يقتل
ملك صور، هذا الذي ما انفك يقاوم حصارها منذ سنوات
خمس طوال.

وما إن غاب إيلولاي عن انظار الملكة حتى ادارت
عينها اللوزيتين التعبتين إلى ارض القاعة، فإذا إلى جنب
العرش فتاة كقلب الصبح تخرج مرتعدة من بين ستائر
الارجوان.

— رآيشا ! هتفت الملكة.

إنها بثها. ركضت اليها وقد سمعت ما دار من حوار
بين أبويها الملك والملكة.

— ذهب ! ذهب ! لماذا لم تتعلقي به أنت، لماذا لم
تشبهي بأذياله ؟ لعلك كنت أوقفته.

فأجابت الأميرة:

— ولكنه قال انه سيقوم بعمل عظيم على رأس
الأسطول.

— عمل عظيم ؟ أو سمعته يقول هذا ؟! صرخت الأم
قلقة.

— كيف ! أولا تتذكرين ؟ لقد كان، يا أماء، حازماً
فيما كنت أنت تجهشين بالبكاء.

كانت صور لم تنس أن تغلات بيليزر الثالث هاجم
حيرام الكبير. كان لم ينقض ربع قرن على انتصارات
الأشوري على حليف داود وسليمان، عنفوان صور
الحديثة.

كان حيرام الصوري ملك صيدونيا كلها، وكان عمره
يمتد من قبرص، هنا على مرمى حجر، إلى القسيتيريد عبر
الأوقيانوس فوق.

ورؤيته يُصرع في أبان مجده ليست من الأمور التي
تُنسى.

ولم تكن لتُسى كذلك خيانة الملك أخاز الذي،
لخلاف بينه وبين الملك بكاه، راح يستنجد الأشوريين
على خصمه وحليف خصمه رزين، عاهل دمشق، فيخف
تغلات بيليزر إلى دمشق يقضي على رزين.

لقد تبدل الوضع في الجوار: قويت آشور وحلفاؤها.
فكان من الضروري أن تتحرك صور تفت من سلطانها
المتعاضم.

أعلنت انتفاضاً على علائقها بأشور. فخف سلماصر
الخامس، خليفة تغلات بيليزر، يرد عليها.

جَيْشُ حَمَلَةٍ بَحْرِيَّةٍ مِنْ سَتِينَ سَفِينَةٍ، مَعْظَمُهَا مِنْ
الْأَسْلَابِ الَّتِي حَصَلَ عَلَيْهَا فِي صِيدُونِ وَبَيْلُوسِ وَارُوَادِ.

وَلَكِنْ أَسْطُولُ صُورَ، الصَّغِيرِ الْمَرْنِ، خَاضَ مَعْرَكَةً أَظْهَرَ
فِيهَا مِنَ الْبَطُولَةِ وَالذُّرْبَةِ مَا دَمَّرَ أَسْطُولَ الْمَهَاجِمِينَ الْمُتَفَوِّقِ
عَدَدًا وَضَخَامَةً وَحَدَاتٍ، وَأَخَذَ مِنْ رِجَالِهِ خَمْسَمِئَةَ أُسِيرٍ.

وَرَأَتْ أَشُّورُ أَنْ لَا بُدَّ مِنْ حِصَارِ بَحْرِيِّ طَوِيلِ النَّفْسِ،
قَدْ يَسْتَغْرِقُ شَهْرًا أَوْ سَنَةً.

وَهَا هِيَ سِنَوَاتٌ خَمْسٌ طَوَالَ تَنْقِضِي وَالْحِصَارُ لَا يَظْفَرُ
بِصُورِ.

لَكِنَّ صُورَ هِيَ أَيْضًا لَمْ تَنْتَصِرْ. تَرَى هَلْ نَفَدَ صَبْرُ
إِيلُولَايَ، مَلِكُهَا الْبَطْلِ، فَعَزَمَ عَلَى تَسْدِيدِ الطَّعْنَةِ الَّتِي تَفَلَّكَ
الْخَنَاقُ عَنْ مَمْلَكَتِهِ وَتَعْطِي الْمَغْزَى النَّهَائِي لِتِلْكَ الشَّجَاعَةِ
الصَّابِرَةِ ؟

— أُمِّي دَعِينِي أَنْزِلَ إِلَى الْأَسْطُولِ، قَالَتْ الْأَمِيرَةُ.

— أَمَجْنُونَةٌ أَنْتِ ؟

— لَا بُدَّ أَنْ وَالِدِي مَفَكَّرَ فِي عَمَلٍ جَلَلٍ. يَجِبُ أَنْ
أَعْضِدَهُ. كُلُّ فَتَاةٍ فِي صُورٍ تُفَكِّرُ فِي عَمَلٍ شَيْءٍ. أَوْ أَتُخَلِّفُ
عَنْهِنَّ ؟

— أحمّرك .

وتركت الملكة القاعة.

في المساء كانت الأميرة تُنصت إلى حديث ضابطين من الأسطول:

— يريد الملك أن نهاجم في منتصف الليل. إنني أتوقع نصراً ولكن غالباً. قد نخسر نصف سفننا. قواد آشور يُديرون المعركة وهم متخلفون عن السفن. آه لو نتمكن من اضرام النار في سفينة القائد الأخيرة، بعل شماي" بعل شماي، أي رعب ننزله إذن في اسطول آشور.

— ولكن أنى لنا أن نصل إلى ذلك واسطولهم محرق بنا من كل جانب ؟ دعك، دعك من ملاعبة المحال.

انتصف الليل، والقواد ينتظرون اشارة الملك إيلولاي. كان الملك قد جاء بنفسه يدير القتال البحري. واذا بالنار تتعالى فجأة في سفينة آشورية كبيرة تضرب بعيداً في عرض البحر.

وكانت معركة ضارية، إلا انها غير طويلة النفس، في نهايتها دحر أسطول آشور وتنفس الصعداء جزيرة الصوريين الحسناء بعد خمس سنوات من الحصار الخانق.

(١) يا إله السماء.

ورايشا بنتُ الملك ؟ رايشا الفتاة التي كقلب الصبح ؟
إنها لم تعد ليلتها إلى القصر.
ولا فيما بعد !

السيف الذي ينظر

كانت الممالك الفينيقية قد خنقت من مطامعها، ساكنة
إلى ما يؤمنه لها من نفع مادي تملؤها بين الحياة والموت
في الجامعة الأشورية.

الا صور. درة البحر الأبيض، وسيدة الاقيانوسات.
كانت معتزة متشامخة في ظل مليكها إيلولاي الباسل.
بيد أنها لم تكن لتسى ان اساطيل سائر الممالك
الفينيقية، العاملة لحساب الجامعة الأشورية، قد استولت
على قبرص.

وقبرص، احدى أجمل مستعمراتها القرية !

أكيد ان ممالك الجامعة لا يسعها ان تمنع تدفق البضائع
الصورية على الجزيرة الخضراء. لكنها بمستطاعها، متى
شاءت، ان تعرقل نشاط المراكب.

صور ساكنة ؟ نعم، سوى ان ناراً تتأكلها من أجل
استرداد الجزيرة الخضراء.

أتراها تتمد إلى القيام بعمل حربي ؟

انتصارها، إلى سنواتٍ خلت، على سلمناصر الخامس
جرى بحافز من العنفوان القومي واردة الحياة. كان فكاً
لحصارٍ يخنقها، حرباً إذن دفاعية.

الاستيلاء على قبرص يستدعي عملاً هجومياً.

وهل هو في مقدور صور، وأشور، سيده الجامعة، لا
تزال قوية قوية ؟

سياسة صور قائمة على اعتماد الدفاع وعلى دبلوماسية
مرنة وصارمة في آن.

على أن الأشوريين هم انفسهم بدأوا الحصار...

ها هم يطوقونها برّاً بجيوشهم العديدة، وبحراً باسطول
الجامعة، وهي رابطة مؤلفة من سِتِّ عشرة مملكة.

حصارٌ جديد !

جسّ إيلولاي نبضه فلم يجد فيه ما يُخيف مدينة
البطولة.

وفي الليل أصدر بياناً إلى الرعيّة مفعماً بالامل.

— ثبت لعملائنا، قال الملك، ان الجيوش البريّة
والوحدات البحريّة الي تطوّقنا ليست سوى خُمسٍ ما
كانت عليه قواتُ سلمناصر.

« بطولتكم عرفت يومئذ كيف تصمد للحصار، كما أن
نُزوةً منكم شريفة عرفت كيف تسدّد اليه، بعد أن وَهَن،
ضربةً قاتلة.

« لن أقول اصمدوا سنواتٍ، كما فعلتم، إنما أشهراً.

« ثقوا بي كما اثق بكم.

« صور لا تُغلب ».

كانت الملكة لا تزال في حدادها على بنتها رايشا
الحسنة التي كقلب الصبح، بطلةً فكّ الحصار. وأُثِرَ عنها
انها لم تخرج من قصرها ولو لحضور حفلات النصر.

أما الآن، وقد بدا في الأفق خطرٌ جديد، فقد شوهدت
مع الملك تتفقد الأسطول.

وقال بعضُ الجنود إنها بَسَمَتْ لهم. فقدَّروا لها ذلك
وراح هُتافُهم يشقُّ السماء.

لم يخطئ إيلولاي في وعده بفكِّ الحصار. وما انقضت
ثلاثة أشهر حتى تراجع أسطول العدو فاقداً ثلثيه.
وتبعه الجيش البري.

قويت شوكة إيلولاي وطار صيته في العالم. فجاءه
رُسلٌ من قبرص يطلبون إليه أن ينتقل إلى الهجوم ليستردَّ
الجزيرة الخضراء.

وإنعقد البرلمان السوري في جلسات اربع تقرر في
نهايتها تقوية الجيش والاسطول تحسباً لعمل خارق.

قبالة الجامعة الأشورية، التي تخضع لها سائر الممالك
الفينيقية، ألا ينبغي إنشاء جامعةٍ أخرى ؟
وهكذا وُلدت « العصبَةُ البحريَّة ».

تزعمتها صور ودخلتها صراحةً مصرٌ وعسقلانُ
واكرون. وكانت ارواد وبيبلوس وأشدود وغزة وسواها من
المتطلَّعات إلى مشايعتهن.

وكانت الاشارة.

صور تحرَّض الممتلكاتِ الأشورية وتساعدها عسكرياً.

وتحركت آشور. جرّدت جيشاً التقى المصريين امام
اكرون فدحروهم.

كانت المعركة صاعقة بحيث أثارت الرعب في ممالك
شتى. ولما خلق الجيش الآشوري خلقاً كل خيرات
اليهودية، خفّ حزقياس ملكها يقّدم خضوعه لسنحريب
الملك الاعظم.

وفتّ ذلك في عضد ارواد وييلوس وأشدود وغزة،
فتمنّعن عن تقديم المساعدة السرية التي كنّ قد وعدن بها.
وهكذا بقيت صور لا يُساندها الا عسقلان واكرون
ومصرُ المُصابة.

سوى أن العصبة البحرية، بالرغم من هذه التخلّيات،
أبت أن تهادن. فقاتلت بدولها الاربع على جبهاتٍ شتى
تمثل جيوش ستّ عشرة مملكة.

تفوّق العدد لم يكن ليفوت أحداً.

أخيراً انعقد البرلمان الصوريّ على جناح السرعة، وثلث
أعضائه، الذين هم زهرة شباب صور، متغيّب في ساحات
القتال، واتخذ قراراً بان يطلب إلى إيلولاي الملكِ البطل
ان ينكفئ بشخصه إلى قبرص حيث أنصار صور متفوّقون.
وقام وفدُ المدينة إلى خطّ النار يطلب مقابلة الملك.

فلما علم إيلولاي بقدومهم أوجسَ شَوْماً. فأعلن أنه لا
يقابل أحداً وأنه يفضل الموت وسيُفه في يده.

حتى إذا قيل له: « إن في الوفد أخبار المدينة الاربعة »
أذعن وقام إلى مقابلتهم.

راحت سفينة كبيرة تشق عباب اليمّ تقلُّ إيلولاي
وعائلته إلى الجزيرة الخضراء.

وكان الجميع يعتقدون أن العبقرى الحربي سيعرف أن
يتدبر الامر هناك، حتى تواتيه الظروف فيعلن الانتقاضَ
واسترداد المجد المفقود.

الا أن إيلولاي، وقد توقع أفول نجمه وحْدَسَهُ حْدَسَه
بانه لن يعود إلى صور، القى في البحر، في المكان الذي
احترقت فيه بنته البطلة، سيفه الطويل الضخم بعد أن حفر
عليه بالذهب آيةً بقيت سراً.

زعم بعضهم انها تقول:

هذا السيف هو خليق بلئ، أنتِ الحية هنا، أكثر منه بي، أنا الميت
هناك.

وذهب آخرون إلى انها تقول:

سأعود الى تجريد هذا السيف من جديد، بعد أن يكون قد بقي في
حرز من لم تتخلَّ عن خط النار.

والى قرون عديدة، بقي الفتيان من عُليا عائلات صور
يغوصون كلَّ يوم في البحر، يفتشون عن السيف الذي
يقال إن مَنْ يعثر عليه يبني للمدينة الخالدة مجداً لم تعرفه
مملكة.

الطائر العجيب

كان الطائر العظيم على وشك أن يصل. فاللبنانان في تهيّب. إذ لا يجوز أن يرى الطائر فينقّسَ أحد. ذاك الذي يعيش ألف سنة ويفدّ من قلب الشرق كلّ خمسين أو مئة، ليحترق بالعنبر والطيب فوق هيكل الاسرار في لبنان، وبعد أيام ثلاثة يستعيد الحياة ليؤوب إلى موطنه في قلب الشرق.

كانت القشعريرة قد سرّت في التلال والسهول، وفي موج البحر. والناس واجمون يتبرّكون بدنوّ الهنيهة التي سيحطّ فيها فينقّس على أرضهم، إلّا ريسى، ابن الكاهن الأكبر في جبيل.

— سأحدّق اليه، قال، سأسأله ما شأنه، هذا الطائر
العجب ؟ ما حكايته ولم يقصد البناء نحن، دون سائر
الشعوب ؟

هي المرة الأولى التي فيها يهتم الشاب المزهو بسرٍّ من
أسرار الدين. وإنما تطوافه في المعرفة كان قد افضى به إلى
برودة في الإيمان.

الا أن كاهن إيل شعر بمثل تجديفة تلتطّخ الجوّ، فلم
يلبث أن أغمد النظر في عيني ولده :

— بصرك إلى الأرض ولا تتفوّه بكلمة.

— تُرهات ! قال الفتى الثائر، أريد أن أرى، أن أعرف.

كان، هناك، شَمْعَدَانٌ ضخّم، مسبّعُ الفروع، يقتضي
تحريكه عشرين رجلاً، فهجم عليه الكاهن بجسمانه
الضخم وكَمَنَ أُعْطِيَ قوّةً غير بشرية لكأه بكتفه، فسقط
على الشاب وغيّبه.

فَعَلَ. وراحت أبصاره تُخرس بسلطانها كلّ استغراب
وتمزّق الصرخة على شفاه الناس.

واستمرّت الحناجر تنطلق بالاناشيد، كأن لم يُقتل، بيد
والده، أجملُ فتیان كنعان.

كانت رائحة العنبر قد تضاءلت، إيداناً بان الطائر
المقدس أتم تضحية نفسه، والناس قد آبوا إلى بيوتهم من
تلك الحفلة التي اصطبغت، هذه السنة، بالهول والدم،
عندما انهار الكاهن على الشمعدان المسبّع يتحب كطفل.
ظن أن أحداً لا يراه.

ولكن إيكايا، ذات العينين الزرقاوين كسماء شامسة،
كانت تطالعه بجماع نيساناتها الستة عشر.
وعندما ركضت إليه ولففتها أوسع من عينيها الضائعتين،
أجاب عن سؤال لم تتفوه به:
— بلى، مات !

— ولكن... انت، انت نفسك، الا تقدر؟...

— لا، لا يجوز لي أن ألقى عليه من رماد الطائر
المقدس. رماد فينفس حي، ومن مسّه أيقظ الصاعقة.
فصرخت الفتاة:
— أنا أمسه.

عندما عاد ريسى إلى الوجود كان قد خبر سر الموت
والحياة.

وخبر أكثر: حُب إيكايا، ذاك الذي يقيم من موت.

وفيما الكاهنُ ينتظر انخساف الارض بالمدينة، كانت
الدنيا على خير حال، والعصافيرُ تملأُ الصحو سجعاً.
في المساء، تحت ظلّ ياسمينه قصرهم، كان ريسى
يناجي إيكايا:

— بتّ أؤمن بان الجمال وَحْدَهُ يحيي.

— لا تجدّف، يا ريسى. لا يحيي الا ايل.

— ايل، قاطعها ريسى، وهذا الهدب المضيء.

— لا تقل، لا تقل، وانما احياك رمادُ الطائر فينقس.

— إيكايا، لا تهزلي.

ولما سكتت أكمل:

— أنا لم أحصلُ العلم فقط في صور العظيمة. لقد
ولدت في مملكة رَحُوب القائمة في السهل الأنيق بين
اللبنانيين حيث أخذتُ الحرف عن أمي، واخذت عن كهّاننا
كلّ ما خبأته كُتُبُ السِحر. وانتقلت إلى مملكة معكة في
سفح الحرمون، فإلى جسور التي على تخومها، فإلى يَطُورَ
الغنيةِ بالغمام والحكمة. ومنها يمت شطر ارجوب،
فباشان التي على كتف الاردن اتزوّد منهما باسرار سير
الكواكب. وجئت بيريت ذات المكتبة الفريدة في اخبار
الأمم وقصص التكوّن. وكان لم يبق امامي من ممالك آرام

سوى جَبِيلَ عَهْدَ قَصْدَتْ — وانا لا ازال لهيفَ المعرفة —
معاهد صيدون الجميلة. هناك بدلت الكثير من ثياب عقلي.
ثم زرت على التوالي ممالك عكّا وأكشاف في سَفْحِ
الكرمل، وحاصور التي على بحيرة الحولة، وأفيف التي في
الأعالي قِبالةَ الحرمون والجلجال وعيُّون أغبُّ من تحت
تلك القباب الشامخة آخر كلمات المعرفة. وحملت نفسي
إلى أرواد، صاحبة الارث البحري، فالى قَدَش على
الأورونت آخر تخمٍ لارضنا حشدنا فيه ما نمدُّ به العالم
من فكر وفن.

« سَبْعَ عَشْرَةَ مملكة من ممالكنا عايشَتْ علماءها فلم
أفد ما ينقُع من غلّة.

« واذ يُلبّي ابي نداءَ جَبِيلَ متسلِّماً كهنوتها الاكبر،
أُرافقه إلى الحاضرة الوحيدة التي لم أكن زرت، لا أملا
بتهدئة قلقي بل نزولاً على ارادة والدٍ صَغْبٍ سَليطٍ تساوى
عنده الموتُ والحياة.

« وكدت اغرق، في جلال الطقوس الدينية، وأناقتها،
وبخورها، وأنا لا اؤمن بان وراءها شيئاً. وتُمرُّ بي عذارى
كنعان وآرام كأنهن دُمي. وانتِ، انتِ نفسك، لم

اكتشف دنيواتِ عينيكِ الا هنيهةً أمرتا الحياة بان تقبل
جُشتي.

« اليوم، اليوم... ما أدري... يكاد شيء من كياني
يتزلزل ليبنى من جديد ».

فقلت إيكايا:

« أصبح، يا ريسى:

« اخذتُ عن جدتي — أمرنِ نسوتنا خاطرةً وأوفرهن
حسناً — ان بلادنا كانت أوّل من عبَد الإله الأحد، مبدع
السموات والارض، لأنه فيها انما بث الحياة العاقلة،
صبيحة عهد الارض بالعقل.

« ولكنّه فرض على الخلائق فرائضَ صعبة، تُعَدّل ما
وعدها به من مجد. وهكذا مال عنه أهلنا وعبدوا من دونه
ما هو صنعُ يديه: عجبوا للزمان، كيف يكرّ ولا انقطاع،
فألوه، ثم للشمس، كيف تعطي الحرارة التي تنمي الحياة،
فجعلوها هي أيضاً إلهة. وحسُنَ في اعينهم ذاك وهذا من
أبطالنا والبطلات، فراحوا يؤلّهون ما شاء الخيال، فكان
البعليم وكانت البعلات. واذا عدد من ممالكنا مشيداً على
اسم هؤلاء: صيد — إيون، جب — إيل، بعل — بك. اما

إيل المحبة فلم يبقَ عندنا من رحمته سوى وَعد. وعدُّ بأن
يجيء يوماً ويردُّنا إليه .»

فسأل ريسى:

— يجيء هو نفسه إلى الأرض ؟

— هو نفسه، ويعيش عيشتنا، ويكدح في الحقل
كدحنا، يشقى ويموت ويُدفن في التراب، وفي اليوم الثالث
يقوم.

— تماماً كما يقولون عن الطائر !

فقلت:

— ليس فينفس سوى رمز الوعد. ومن آمن بالوعد، قبلَ
إتمامه، أحياء محضُ الإيمان. الإيمان حبٌّ. ولقد أحياء
فينفس على يدي لا لشيء آخر. اني مؤمنةٌ أكثر من والدك
الكاهن الأكبر، وهو الذي لم يكن ليظنُّ ان الحبَّ يُسكت
الصاعقة.

« ولم تقلَّ جدتي شيئاً عما اذا كان الوعد سيتمَّ عندنا
أو لا. ولكنها قالت إنه، تعالى، سوف يعتمد، يوم يجيء
الأرض، بمياه من ثلج الحرمون، جبلنا البهيَّ المحبَّ،
وهو الذي إنما أُقيم صلة إلى الابد بيننا وبين الآخرين .»
وظلَّت إيكايا، تبثُّ هذا البثُّ، والمؤمن الجديد يسرح

نظره على أجمل مخلوقة في كنعان وآرام، تلك التي لكثرة
حُبِّها أُعطيَتْ أن تحوّر في نواميس الوجود: مسّت رماد
الطائر فينفس وقالت للموت: « مُتْ » فمات.

عَبْرِيَّة

كان داريوس قد لعبَ بمقدَّرات العالم سحابةً ثلثٍ من
قرن.

أما اليوم فهو منطرح على فراشه والمعمور شاخصٌ إلى
القدر ينتظر قوله فيه.

لقد خرج نرغال، كبيرُ الأطباء، من لدنه متهللاً باسماء.
وسمعه الكثيرون يضحك.

— الملك، قال، انه لَيُفضلُكم جميعاً عافيةً وإشراقَ
وجه. ومرةً أخرى سيكون على رأس الجيش.

فضجَّ التَّبَعُ فرحاً، وراحت حناجرهم تهتف لداريوس.

وكان داريوس قد سمع قول كبير الاطباء، فأوجس شكاً في هذه الثروة الجهورية.

أرسل يطلب عبدئيل، معلم ابن زركسيس فيما مضى، ونزىل قصرهم دوماً.

ولكنهم تأخروا في المجيء به.

— انه الحكيم الوحيد، قال الملك. كنتُ اعتمدُهُ في الملّات.

« عنده لكلّ سؤال جواب ولكلّ معضلة حلّ.

« وآونة يشقّ عليه أن يُجيب، يجد الكلمة المعزية ».

وعاد الملك يصرخ:

— الحكيم الصيدوني ! عبدئيل ! أين عبدئيل ؟

واذا باحد الخدم ينطرحُ على الارض يعفر جبينه.

— تكلم، جأر داريوس.

— مات عبدئيل، منذ اسبوع، ولم يشأ أحدُ إبلاغ

مولاي الخبر.

— مات ! لقد قلّ النورُ في الأرض !

وأخذت داريوس غصّة تحزّ منه في الحلق والصدر.

— كأس ماء، راح يهتف في مثل الهمس، كأس ماء.

فرّفع اأءءهم ىءىءه إىلئ كؤبٍ بئورى؁ كبرى؁ انىقِ
اللفائف؁ وءمله كأئه ءقّ مءءس؁ ثم بئوءة راء ىءفعه
صوب شفئى الملك.

وما هى ءئى ءُءل إىءه أن الملك ىءنى منه لءظه بءل
الشفئىن. لكأنما عىناه هما العطشئان !

انهما لكبران الآن. لكبران كئىراً. وئسئءىر ءءقئاهما
فى مثل نءمئئىن ئوءان لو ئسئوعىان الكون.

— هءا الكؤب ! قال ءارىوس بئهىب؁ إنه هءىةءه ءءكم
الءى ذهب.
وسكئ.

اما ءامل الكؤب فلم ىكن ىءرى ما ىعمل: أىرءه إىلئ
مكائه أم ىءنىءه من ءلك الفم المرئءفف؁ لا ىشرب.
وظلّ فى ءىرئءه مسمراً؁ والكؤب ىئلأاً فى الفضاء
مسمراً هو أىضاً.

ها هو الماء ىضء صفاؤه وسط البئور. وىئءءء من آن
إىلئ آن؁ مُسمِماً مثل نبضة قلب كلما ارئءففئ ىء ءامله؁
ولءاظ ءارىوس المئعبءة الءاهلة ئئأرءء مع الأمواج الءققة
كءطوط ءلم.

داريوس الآن يرى في التماع البلور وتحرك الماء صداقة
شاب شالت به من حضيض إلى عرش، ومن عرش مملكة
إلى سيطرة على الأرض جميعاً.

كانت فارس، بعد موت قبيز، عرضة للفتن ولألاعيب
المغامر غومادا. حتى اذا ثار الاشراف على غومادا وقتلوه
ومثلوا به، راحت كل ولاية تنادي بالاستقلال عن الجسم.

— داريوس، كن جريئاً، قال عبدئيل، فرق بين هؤلاء
الطماع من صغارة، قل كلمتك قاطعة كالسيف. المملك انه
غداً صائر إليك. جاهد، جاهد عاماً واثنين وعشرة إن
اقتضى الامر. أحمّد الثورات في آرام وبابل، في ماداي
وأرمينية وهركانية وأشور وفرتية.

« ليكن لك بلاط مهيب يعكس مجدك في القلوب.
نظم الجيش فيغدو أجمل وأمجّد قوة في الشرق. وليكن
لك منه صفوة لا تضارع ولا تنقص. وسمّها « الخالدين ».

« عمر، عمر دوماً. واعتمد العلماء وذوي الاختصاص.
ولتكن اعمالك آخر كلمة في الحضارة.

« المملك لك، يا داريوس، بقدر ما تخدمه. وبهذا القدر
يشيل بك إلى النجم

« لا تُلقِ سماعاً إلى الوشاة. وليكن لك أعوان يريدون
خير الناس. خير الناس هو وحده خيرك.

« اجعل لمملكته شرايين توزع الحياة: موصلات
تربط اطرافها بالقلب. وأمن للحواضر العريقة، كصيدون
وصور، تلك المنسلكة في عقدك، مجال اعتزاز وعنفوان.
اجعل نظامك معها بمثابة حلف. وعليك بالحب ! الحب
وحده يأسر الناس.

« افتح. طر بفرسانك ومُشائك إلى الهند. إنهم
أشداء ولا يعوزهم طموح، والتجارة حولها إلى شعبك لا
اليك. طر إلى اليمن، إلى البوسفور، إلى البلقان.

« ها أنت السيد من الدانوب إلى الهندوس. ولكن هل
قام ملكك على محض امتشاق السيف ؟ لا. وانما على
الرأي السديد أيضاً.

« امض في ترقية شعوبك. امض وليشعر كل فرد من
رعبتك بأنه اليوم متحضر أكثر منه بالأمس، وغداً أكثر منه
اليوم.

« اسطول الصيادنة هو لك. ملكة البر فاملك البحر.
« ضربتكَ العاصفة — حليفةُ الثائرين عليك — عند
جبل أتوس، مفرقةً لك ثلاثمئة سفينة وعشرين ألف رجل.

لا تأبه. هاجم الايونية، أهدم الارترية. وستدحرك قبضة من
ابطال الاغارقة في ماراتون، وتثور عليك اجبتيا. اضرب
اجبتيا وارتنّ إلى الذين قاسوا انفسهم بحلمك الكبير في
ماراتون.»

وصرخ داريوس وكأنه يُحشرج:
— والآن أين؟ أين الصوت الذي كان يقودني إلى كلّ
هذا المجد؟ أين دليلي إلى الايونية، فأرتق — على
عادتي — ما تفتق من رقعة مملكتي الواسعة.
« عبدئيل؟ أين وجه عبدئيل يلتمع لي في هذا الحلك
المتكاثف؟

« بلى بلى، ها هو الحكيم الصيدوني يتراءى لي. في
هذا الكوب امواج بحر كبير. هذا عبدئيل يجذف مندفعاً
إليّ على مركب مثلث المجاذيف. على واحد من تلك
الطراذفات التي لا تُصنع الا في صيدون حاضرة الحواضر.
« عبدئيل، إليّ يا عبدئيل، إليّ إليّ.»

ولكن حامل الكوب كانت قد نفدت منه القوى واشتدّ
رجفان يديه، فسقط الكوب من بين اصابعه متحطماً
وكأنما يوجع الحضيض.

لم يبق أمام عيني داريوس كوب صيدونيّ يلتمع، ودّع
داريوس النور.

قنبير، القنبسا

- معتمدُ صيدون... معتمدُ صيدون... تعرف أنه لا
أحبُّ عليَّ من استقبال معتمد صيدون.
— ألا جعلتنا الآلهة خَلِيقِينَ بهذه الثقة.
— إقتعد هذه الطنفسة هنا، إلى يميني. انه المكان الذي
لملك صيدون منذ والدي العظيم.
ببساطةٍ عريقة نزل الصيدونيُّ على رغبة قنبير، مكتفياً
بأن شَكَرَ له بانهناء رصين وابتسامة صادقة.
— كيف كانت الرحلة ؟ سأل الملك، هل تضايقتُم في
الطريق ؟

— لا أيها المولى ولقد اقلّنتني السفينةُ إلى مصر مباشرة.

— والبحرُ ؟ هل كان سَلِساً ؟ ولكن الصيادنة لا

يعرفونه سلساً أو غاضباً. انه عبدهم منذ الازل. أو ليس

هذا ما تقولون ؟

— غدوتَ تنظم الشعر، ايها المولى.

— تظن. ومن يدري ؟ ولو انني دخلت مدارسَ صور

منذ الطفولة لكنت بززتُ شاعركم الشّبيبي...

قالها وراح يضحك.

ثم استطرد وهو لا يزال يمهد ويؤخر لولوج الموضوع

الذي من أجله استدعى معتمدٌ صيدون:

— أكيدٌ ان الصوريين يحبوننا. يا للشعب الوفيّ.

— اجل، ايها المولى، وهم لا ينسَوَن ان والدك قورش

هو الذي ساعدهم على لَمّ شملهم وعلى ترميم مدينتهم

العظيمة.

فيقول قنيز:

— حقاً. اكاد لا أصدّق عناد نبوكدنصر. مدينةٌ تصمدُ

لحصاره ثلاثةَ عَشَرَ عاماً... حتى اذا سقطت أعمل فيها

السيف.

« كان عليه ان يعامل الصوريين كأنداد أكفاء.

« لسوف يكونون سبب مجده يوماً. سيقال: كان عظيماً لأنه تغلب على الجزيرة التي لا تغلب.

— صحيح أنك غدت شاعراً، أيها المولى.

« ومهما يكن فعلائق صور وصيدون بملك الفرس هي في مستوى الحلف الذي يُسبغ نعمة على الطرفين.

« وعندنا أنه كان عهد سعد ذاك الذي أحل والدك على عرش الميديين، ثم نصره على مملكة ليديا فعلى ايران وبكتريان وأخيراً على بابل.

« لقد وطد والدك ملكاً قلما دان لذي تاج ».

قال، وكأنما اثار قوله هذا كوامن تتأكل صدر الفارسي:

— ولكنّ والدي مات يحزّ في قلبه نقل الحرب إلى بلاد الاغارقة، فإلى...

— إلى أين ؟ قال معتمد صيدون.

— إلى مصر.

فأكمل المعتمد يسأل:

— إلى مصر وحسب ؟ هذا أنت سيّد النيل.

قال قنيز:

— أجل وكان ذلك بفضل أسطولكم.

« إن كل ما خَصَرَّ به والدي ممالككم من رعاية
واصلاح وابقاء على سيادة، لا شيء ان هو قيس بعونكم
البحري لي.

« ولكن أجب، يا عزيزي المعتمد، إلى أي حد ستبقون
نصراءنا ؟

— حرائبنا حرائبك أيها الملك، وحلفنا مع فارس سيعمل
أبدأ. وسيضرب سيفنا إلى جنب سيفك لا يستثنى احداً إلا
ربنا وأنفسنا.

— ربكم: انني سأقدم له الذبيحة التي تقدمون. اما
« انفسكم » فمن تقصد بها ؟

— واضح أنا، أيها الملك، وهل يُطلب من صيدون مثلاً
أن تقتل ؟ هل لأحيائها البحرية أن تضرب شوارعها البرية،
كلا وايم إيل.

فحسر قنيز عن وجهه قناع الرياء، وصرخ يستعلم
ضراجه عما قصده المعتمد الصيدوني من تلك الأقوال:
— اسمع، يا عزيزنا معتمد صيدون، أريد أن أعرف ما
قرطاجة منكم ؟

— قرطاجة ؟ إنها حيّ من أحياء صور.
— أَسْكُتْ.

ولكن قنيز قالها وندم.

— أتوسّل اليك، ايها المعتمد، أتوسّل إلى صيدون
وصور العظيمنتين، حليفتيّ أنا بعد أبي، وصديقتيّ بلادي
على الدهر، وأجمل درّتين في تاج مَلِك، ان تتداركوا
سمعتي. لقد تحطّمتُ، يا سيدي، هُزمتُ شرّ هزيمة في
الحبشة. معنوياتي تزعزعت. أعدائي في سُوس شامتون
بي. لا يُنقذ شرفي سوى الاستيلاء على قرطاجة.
— ماذا تقول ! نرضى عنك في مهاجمتك قرطاجة؟!
— وتساعدوني أيضاً.

فشك الصيدونيّ غير قليل. ثم وقف ومشى إلى الباب.
حتى إذا بلغه ارتدّ إلى الملك وقال:

— لا، ولسوف تكون وحدك بعد اليوم، يا قنيز.
والذي بيننا من حلف. ها أحد الطرفين ينقضه. كان حلفاً
جميلاً. قرطاجة بثّنا، يا قنيز، قرطاجة لن تكتحلّ بمراها
عيناك.

حَلَقَةُ بَرِّ الْحَبِيبِ

قبل أن تولد، كانت إلزا تُخطبت إلى رَفُيل.
كان كبيرُ الشيوخ في صور قد لفظَ، يوم المصالحة
بين بيتيهما المتنافسين على التاج، كلمةً لم ينسها أحد:
— إن أُعطي المَلِكُ بنتاً فتكونُ عروساً للامير رفئيل.
ويبدو ان إيل تعالى استجاب الدعاء، فرزق الملك
بنتاً وُسِّيت إلزا.

كان شعرها كضوء القمر، وكانت عالية الخصر، مشيقة
الأنامل، حتى لقد سُمِّيت، يوم دخلت أول مرة إلى ندوة
الشيوخ، «القائمة المغنية».

كانت تعرف أن رفيل أعد لها قبل أن تولد، فلا تُفكر
في ذلك إلا لترسل ضحكةً مُبهمة عجزت صويحبائها عن
إدراك ما تحملها من معانٍ.

أتراها مزهوة أم هي هازئة ؟

الا أن رفيل كان بهيّ الطلعة. أوّل فرسان صور إن عُدّ
خيالتها، واجلدّهم على مواجهة الجلل إن تأزمت الحال او
تنافس الفتيان في التقشّف، وهو مذهبٌ فكريّ طلع به
فيلسوف من جيل وعمّ طبقة النُبلاء في ممالك كنعان
وآرام.

وفيما شهرة رفيل تتعاضد، كانت السياسة تُباعد بين
البيتين. حتى اذا بلغ الفتى التاسعة عشرة كانت الأسرتان على
وشك امتشاق السيف.

هو رفيل لا يلتقي إلّا عَرَضاً، وقل نادراً. تكلّمه
بقدر ما يكون أبوها الملك قد حدّ من حدة غيظه على
بيتهم.

وأخيراً كانت أشهر انقطاع.

— حُلّت الخطبة نهائياً، رددت إحدى ثرائرات البلاط.

ففهمت المدينة انه تصريح كافٍ.

و ذات ليلة، فيما البحرُ يصخبُ والسماء تهطل ميازيبُ
تكاد تجرف حتى القصور المنيفة، كانت دارةُ رفيل
الخاصة — وهي على الراية، خارج المدينة، في غابة
صنوبر يؤمها مع رفاقه ايام الصيد — تسمع طرْقاً على
الباب.

— مَنْ ؟ سأل رفيل.

— أنا إلزا.

— إلزا !

وهبَّ اليها بقلبٍ مشلّع.

— لا شيء، قالت، جئت لأطلب منك أن تهرب.
انكشفت مؤامرتك على الحكم. نعم سُمّحواون إلى القضاء،
لكن العدل سيكون رهيباً ! رفيل إنَّ لك في قلبي فوق ما
تظنّ.

قالتها وانسلت كطيف.

الثورة لم تكن مهياةً كفافاً. لكن أحد قوادها شعر بأن
السّر انفضح فاستعجل اعلانها على غير علم من رفيل
قائدِها الاعلى.

وسَقَطَ ضحايا كثيرون، وفُصِدَ جيشُ صور. ولكن
السيفُ الثائرُ تحطَّم.

امتلاً سَجَنُا المدينةَ بالأشراف. اما العامة فقد جُعلوا في
معسكر وثُقِّلوا بالقيود.

والتأمت محكمة الثلاثين.

لم يكن هناك ادعاء عام. كان أحدُ القضاة يتبنَّى التهمة،
فان لم تُثبِت امكن المتهَم ان يعود عليه مُطالباً بتعويض عن
الشرف المهان.

— اسمُك، جأر كبير القضاة.

فلم يتلق جواباً.

فتوجه إلى مَدُون الوقائع.

— أكتب: رفيل بن أربا، عمره أحدٌ وعشرون عاماً،
أجمع أربعة عشر شاهداً على انه هو مدبِّر الثورة.

وإلى رفيل:

— سأتولَّى الأجوبة عنك. متى أُخطئُ تقاطعني. انني
حريصٌ على خدمة الحقيقة.

واستطرد:

— ثَبِتَ أنك كُنْتَ تُفسد المواطنين فرداً فرداً. تقول

لهم أن الحكم لا يصلح لأنه لا يؤمن لصور نهضة خليفة
بصدّ الاغارقة إن هم هاجموا، وانه يجب خلْع الملك وفَضْ
المجلسين واحتلال داريهما.

« وثبت أنك كنت تُلمع إلى عدالة رادعة. وسميتها
أحياناً فقء أعين الملك والملكة وبنتهما الأميرة إلزاء،
خطيتك السابقة. انك ستنكر ؟

— لا، قال رفيل، وجرحاً لمن وراءك لن انكر.

— صحيحة التهمة ؟

— صحيحة.

فسرت قشعريرة اشمزاز في وجوه القضاة ولم يثق فرد
يعطف على الأمير المتهم.

أبينكم واحد، قال الرئيس، لا يجرمه.

— كلاً ! صرخ الجميع بصوت واحد.

— إلا أنا، قال رفيل، أنا نفسي لا أجرم نفسي.

المتكلم ابن بيت عريق في الحكم، وذو حُرمة فوق
الوصف حتى ليعدّ الانوف الأول في صور. ثم هو شهير
التقشّف، لم يُعرف انه شربَ خمرأ أو تحرش بامرأة أو
اغتاب أحداً أو نطق لسانه بكذب.

— تشهد لنفسك، قال كبير القضاة مستهجنًا.

— ولم لا ؟ أولا يحق للمرء أحياناً أن يخوض في نفسه ؟ متى نُحِيل ان الواقع هو غير ما هو فعلى الذي يتضرر أن يردّ الواقع إلى السراط.

« أنا لا أدفع عن نفسي التهمة خوفاً من موت. الموت ؟ لقد غدا أحبّ اللذائذ التي بعد أن أصبحت بلادي سجيناً وأماني أمتي معفّرة بالتراب.

« سأروي لكم الحقيقة لا شيء إلا لذة بالحقيقة. وأرويها كذلك لتجنب العدالة الشطط.

« عدالة صور، لا يجوز لعدالة صور أن تخطئ.

— رُدّ التهمة المنسوبة إليك، قال كبير القضاة متبرّماً ولا تُلْق علينا درساً.

— ومن أكثر مني، مَنْ يحقّ له القاء درس ؟ (عذراً، أيها القضاة، على هذا الذي يبدو تبجحاً). إن قول الناس فيّ إنني لا أكذب لهو كل ما اقتنيت في حياتي. صحيح أنني لا أكذب.

— تقولها أنت، قال أحد الثلاثين.

— وأنت أيضاً، قال رفيل، لو رجعت إلى ضميرك.

فَظَنَّ الحَضُورُ أَنَّ القَاضِيَّ سَيُردُّ بِأَعْنَفٍ .
ولكنه سكت .

فتابع رفيل :

— على جوابك، يا سيدي القاضي، يتوقف مُضَيِّي في الكلام . قل الا تعتقد في قرارة نفسك انني لا أكذب ؟

فأجاب القاضي :

— بلى .

وَصَفَّقَ الحَضُورُ .

وبعضُ القضاة .

فقضم كبيرهم رُذُنَ ثوبه وراح يعلن انهم ليسوا في
مرسح .

— أَيْمٌ، أيها المتهم .

— لن أتوقف عند قولك، يا سيدي القاضي، انني كنت
اعتزم فقءَ اعين الملك والملكة وخطيبتني السابقة . التهمة لا
تليق بشمائلنا نحن الصوريين . سأخوض في ما هو جدِّي :
لقد نظَّمتُ الحزب الذي عاد فقام بالثورة . وكنتُ في
ضميري أعدُّه لها . ولكنني لا أعرف كيف أُعلِنْتُ وأُيِّ من
رفاقي كان المحرض .

— ونركال ؟ قال كبير القضاة.

— يستحيل. لقد مات الآن. المحرّض... المحرّض
يجب أن يكون آخر. سِرُّ لم أهد إليه بعد.

— ولن تهتدي. ليس ذلك في مصلحتك.

— بلى، يا كبير القضاة، لأنه في مصلحة الحقيقة.

فشهقت امرأة بالبكاء إعجاباً بجواب رفيل.
فأخرجت:

— تعترف إذن إنك كنت تضرر الثورة.

— نعم.

— وتعترف ان الحزب الذي ألفت كان لهذه الغاية.

— تماماً.

— أتعرف ماذا يترتب على هذا ؟

— تحاكمني، يا كبير القضاة، بتهمة إعلان الثورة.

اطلبُ تبرئتي من ذلك. وبعد فليتقدم منكم مَنْ يتبنى
الدعوى عليّ بأنني ألفتُ حزباً غايته الثورة. عندئذ لربما
رحتُ أنا نفسي أجرم نفسي.

فارتبك كبير القضاة.

وأوقف الجلسة.

واختلت المحكمة تتذاكر.

إلا أن صياحاً سُمع من داخل قاعة الاجتماع، وطال
التشاور ساعات.

وعندما عادت محكمة الثلاثين إلى الانعقاد تلا كبير
القضاة حكماً طويلاً ختمه بإدانة رفيل والحكم عليه
بالموت صلباً.

— ما على هذا اتفقنا، قال أحد الثلاثين.

— بلى، أجاب كبير القضاة، كنت أنت قد خرجت
أوان اجمع القضاة على الادانة وعقوبة الصلب.

— كنتُ قد خرجت ! في حضوري لم يكن الاتجاه
هكذا. ان في الأمر للعبة ! في الأمر ما يمسُّ شرف العدالة
في صور. ان لم يُفضَّح ما جرى في غيايبي...
ولكنه لم يكمل. توجه اليه احد الحرس بطعنة حربة
صرعته للتو.

والتفت كبير القضاة إلى رفاقه كأنما يحذر من عاقبة
مماثلة.

— ما قُضي به قُضي، قال، وسنفتح تحقيقاً في السبب

الذي أهاب بهذا الحارس ان يعتبر المحكمة أهينث.
ليوقف الحارس.

فقال رفيل:

— لا حاجة إلى ذلك، بل لتوقف السياسة التي خلفك
وخلف حريته. ماتت العدالة في صور.

في اليوم التالي، في اوائل الليل، عندما أنزلت جثة رفيل
عن الصليب ودُفنت تحت شجرة صنوبر، لم يكن هناك
سوى ثلثة من جند، وحفّار قبور، وحامل مشعل.

ولكن صور بأسرها راحت، كل يوم، في مثل الساعة
التي شهدت صلب البطل، تتجمع على قبره تكّـدس جبلاً
من ورد.

ولم تكف حتى شوهدت إلزاء بنت الملك، جثة على
قبر حبيبها، وقد كتبت بدمها:

« كفارة عن ذنب والدي، وبَعْثاً للعدالة في صور ».

يوم نوح - الثامنة

الليل حالك وثقيل، يتناقض مع وجه نوكدنصر المتهلل
الأسارير من فرح، فيما الغازي البابلي يتجه إلى حُجرات
بعل الثاني ملك صور.

قصر الملك واسع، جمّ الأقسام. نزل منه البابليُّ الجناح
الغربي المعرض لنسيمات الغرب. جناح ضخم القباب
والأعمدة مشيق، على أنه مفدغ هنا وهناك.

كان نوكدنصر إن شاء رؤية بعل الثاني أرسل يستدعيه.
سوى أنه، في تلك الليلة، شاء ان يعامله كملك.
فقصده بنفسه ولكن دونما إشعار.

كان يرافقه تابع له يتلفت دوماً بحذر، كأنما يتوجس الشر في الجزيرة العدوّة المغلوبة.

— إفتح. أنا نبوكدنصر، جأر البابلي في وجه الحارس الواقف على باب حجرات الملك.

فردّ هذا بحريّة سدّدها إلى صدر المتكلّم.

— أنا نبوكدنصر.

فرخص على الصوت ثلاثة حراس كان واحدهم كهلاً ناضجاً، فأدرك خطورة الموقف.

— خفف من حدتك، أيها المولى، هذا الحارس مأمور. لا يُدخّل قسراً الا على جسّه. كان بالإمكان اشعار ملكنا قبل الزيارة.

— مَلِكُكُمْ ؟ إنه صنيعتي.

فجمّد الحراس الأربعة لهول الكلمة، وكاد الدّم يطفر من أعينهم. وثبّودل صمت.

وبعد لأي قال الحارس الثالث.

— عبثاً، أيها المولى، تحاول رؤية الملك الليلة، لا نحن بوسعنا الدخول فنعلن قدومك ولا أنت في استطاعتك اجتياز هذه البوابة.

— ماذا ؟

فتقدّم منه أصفر الحراس، وبوجه كُله إيناس قال:
— عفوك، أيها المولى، أمامك أربعة جنود عازمين.
الأمر خطير.

فأعجب الملك بجرأته المفرغة بكياسة بالغة، وراح
يردد:

— والعمل الآن ؟

— تعود إلى حجراتك مكرّماً ريثما يطلع الصبح.
فضحك نبوكدنصر ثم ربّت على كتف الحارس الفتى
وقال:

— بوسعنا أن نتحدّث ؟

— انه لشرف لي عظيم. لم لا ؟ وأنا لست الآن في
الخدمة الفعلية. رديف، ولم يحن موعد عملي.
فأخذ الملك يقهقه ملء شذقه. ثم مشى يلتفت بين حين
 وآخر إلى مرافقه الجديد.

وإذ ابتعدا عن القصر قال الملك:

— أتعرف أن منعكم إياي من الدخول على سيدكم
سيجر عليكم الوبال غداً ؟ أومني تخمون صنيعتي ؟

— منك أم من سواك... نحن نحمي ملك صور.

— ايتو بعل الثاني نُخْلِع وما بعل الثاني هذا سوى
صنيعتي. صنيعتي اتسمع ؟

— تظنّ. وَمَنْ وَلِيَ عرش صور ارتفع إلى مستوى
العرش. لربما كان كما تقول. ولكن قبل ان رَقِيَ العرش.

— قل لي، قاطعه نبوكدنصر، أَكُلُّ حراس المَلِكِ مثلك
أمانة واعتداداً ؟

— إنهم زَهْرَةٌ نبلاء صور.

— أَعْرِضْ عليهم أَنْ يصبحوا حرساً لي في بابل. انني
لَأُسَعِدُهُمْ حتى خَفْدَةٍ خَفْدَتِهِمْ.

— تهزل، أيها المولى. هؤلاء يندرون انفسهم للخدمة،
فيطلقون الغنى إلى الأبد.

— والمجد ؟

— لا مجد فوق مجد الخدمة.

أصبح الحارس صديقاً لنبوكدنصر، فراح البابليُّ كُلَّ
ليلة يطلب إلى بعل الثاني ان يعثه اليه ينادمه.

— تظنّ، أيها الفتى، انه كان بوسعكم الصمود أكثر من
ثلاثة عشر عاماً ؟

— لِمَ لَا، وَلَكُنَّا صَمَدًا بِوَجْهِكَ إِلَى الْأَبَدِ لَوْ أَنَّهُ كَانَ عَلَى عَرْشِنَا مَلِكٌ شَاب.

— وَلِمَاذَا لَمْ تَفَكَّرْ تَفَكِيرَكَ هَذَا أَرْوَادٌ وَجَبِيلٌ وَصِيدُونَ ؟

فَهَزَّ الشَّابُّ كَتْفَيْهِ:

— مِمَّا لَكُنَّا تِلْكَ تَلْعَبُ لَعِبَةً خَطِرَةً. تَرِيدُونَ أَنْ يَكُونَ لَكُمْ أَبَدًا أُسْطُوْلٌ فِي الْمَتَوَسِّطِ فَتَسْتَرْضُونَهَا بِكُلِّ مَا تَرِيدُ — بِالنَّارِ إِنْ لَزِمَ الْأَمْرُ — لَتَظْلُوا سَادَةً عَلَيْهَا، وَعَلَى سَفْنِهَا. وَلَكِنْ لِمَصْرِ الْمَطْمَعِ نَفْسِهِ. وَهِيَ مِثْلُكُمْ تَعْرِفُ إِنْ تُعْرَمُ بِنَا. بَوَسَاطَتِنَا تَرِيدُونَ الْقَفْزَ إِلَى وَادِي النَّيْلِ. الْمَصْرِيُّونَ يُؤْمَلُونَ أَبْقَاءَ هَذَا الْمِفْتَاحِ بِيَدِهِمْ. وَتَسْتَغْلُ كُلُّ هَذِهِ نَزْعَةً تِجَارِيَّةً فِي مِمَّا لَكُنَّا، فَتَجِدُ فِي « تَسْوِيَةٍ » مَعَكُمْ — وَقُلْ فِي « خَنْوَعٍ » أَحْيَانًا — مِزْرَابَ ذَهَبٍ. مِمَّا لَكُنَّا جَمِيعًا تَلْعَبُ لَعِبَةَ الْمَالِ الْخَطِرَةَ إِلَّا صُورَ.

« حَارَبْنَا الْمِصْرِيِّينَ قَبْلَكُمْ، فَالْأَشُورِيُّونَ الَّذِينَ مَاتَ مِنْهُمْ بِحَسْرَتِنَا غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْفَاتِحِينَ الْأَبْطَالِ. وَدَمَّرْتُمْ أَنْتُمْ أَشُورَ فَوَرِثْتُمْ عَظَمَتَهَا، وَفَتَحْتُمَا، وَمَعَهُمَا مَتْعَةٌ صُورَ.

« مِمَّا لَكُنَّا يَوْمَ مَاتَ أَشُورَ رَأَتْ — بِغِبْطَةٍ وَلَا شَكٍّ — أَنْ تَسْقُطَ فِي قَبْضَةِ الْمَصْرِيِّينَ، لِأَنَّهُمْ كَانُوا قَدْ بَدَأُوا عَهْدَ

سالي الكثير ل عمران، الكثير المهمات يكلها الينا، فإذا
عمائر مصر في هذه النهضة يحتكرها مهندسون وصنّاع
من عندنا.

« نعم ما بقيت مصر في آسية بقي بعض ممالكنا
خاضعاً لسياسة مصر. ولكن مصر بأسرها كانت مصرِفاً
لشعوبنا.

« وكانت معركة كركميش فاصلة: طردتم مصر من
آسية، وأقبلت أنت تحتل أورشليم وتجلو اليهود إلى بابل.
وتحاول مصر استرداد مركزها بمساعدتنا، فتقبل أنت هذه
المرة عازماً، تجود بمعظم قوتك وقوى غيرك...

« سقطت كل ممالكنا في قبضتك إلا صور. هذه التي
رحت تجمد عند أسوارها ثلاثة عشر عاماً.

فقال الملك:

— أجل ثلاثة عشر عاماً. وفي النهاية ؟

سكت الملك قليلاً، ثم بدا على جبهته مثل تجعد
يرتجف، وجحظت عيناه محمرّتين وصرخ بالحارس
الشاب:

— وفي النهاية، حطمتكم حتى لقد كشحت اللحم عن
العظم: أعملت فيكم النار والسيف، بعث من يُباع منكم

عبيداً، فرضتُ عليكم الجزية تدفعونها قاصمة ظهر، خلعتُ
ملككم المعتد واستبدلته برجلي وولي نعمتي. أصبح كل
هذا ؟

— صحيح، أيها الملك.

— والآن، لأول مرة في التاريخ، في يد فاتح هو أنا،
سقطت صور الجزيرة.

فصرخ الحارس:

— صور الجزيرة تقول ؟ من يُصدقك يا نبوكدنصر ؟

— عيناك تصدقان. قم، قم إلى هذه النافذة وانظر:
« لم يبق بيتٌ سوى، ولا سفينةٌ عليها شعار صور، ولا
حساءٌ لم أبعها رقيقاً. أنظر أنظر أولاً ترى ؟

وانتظر الملك الجواب. ولكن الشاب راح يضحك ملء
فمه. فالتفت إليه نبوكدنصر، فإذا الدمُ يخضب وجهه.

— ماذا ! فقأت عينيك ؟

فقال الشاب:

— لم لا ؟ أو تريدهما تخالفان الدهر ؟ الدهر، منذ
مولده، لم يَرِ صور الا حرّة.

« بلى يموت النور في عيني الصوريّ يوم تموت
الحرية ».

الزّريّ الأوّل

ذاتُ أمسيةٍ واهجةٍ من عام ١٩٤٨، وقد انعقد مؤتمر
الاونيسكو في لبنان، كان أحدُ الأعضاء الاسوجيين يزور
صيدا. وأوّل ما التقى انساناً، فاجأه بالقول:

— هل تعرف ؟ أنت من صيدون !

كان الصيداوي شاباً مثقفاً، فدخل في روعه ان الرجل
معنيٌّ بالآثار أو التاريخ القديم.

ولمّا تعارفا:

— لا، ما إلى صيدون البطولة أنا قاصد، ولا إلى التي
أعطت العالمَ أجملَ دساتير الحكم، أو كانت ذات يوم

مدينة الذوق تتحكم بالزّي: تلبس وتصيغ بناتِ القادة
والملوك. وانما انا قاصدٌ مدينة موحوس.

فاذا بالصيداوي، على ثقافته، لم يكن قد سمع بهذا
الاسم.

فَعَجِبَ الاسوجي.

قال الشاب:

— حقاً، يا سيدي، أنا خَجِل: لست اعرف موحوس
ولا ما اذا كان شاعراً أو قائد اسطول.

فقال الأسوجي:

— انه دماغ استبق كل الادمغة. واذا نظريته، وهو من
القرن الثاني عشر ق. م.، تسيطر على علوم القرن العشرين
جميعاً. انه أول ذرّي في التاريخ.

فقال اللبناني:

— تعلمنا في المدرسة ان اول ذرّي هو ابن مدرسة
أبدير اليونانية: لوسيب. ومن بعده ديموقريت.

— لقنوكم درسا غير مُوسّع. ولو انكم واجهتم مبحثا
في علم الذرة، رصينا وعميقا، لكان لكم ان تقفوا على
حدث به يفخر لبنان ويُدلّ على العالم.

ولا يختلف اثنان في أن ديموقريت الأبديري أخذ عن

لوسيب، ولوسيب أخذ عن التقليد الذري الراقي إلى
موخوس الصيدوني.

« هذا ما تُعلِّمهُ الكتب اليوم في أوروبة وأميركة جميعاً
وفي اليابان ».

فاطرق اللبناني. مرّة أخرى. واستطرد الاسوجي:

— هل لك بأن نظوّف معاً في موطن موخوس؟
وددتُ ان اكشف ولو كلمة، ولو حرفاً، على المفكر الذي
التمعت له قبل اي آخر أجراً خاطرة مرّت ببال.

فقال اللبناني:

— عندنا في صيدا معاهدُ عِلْم فهل تريد؟...

— لا لا، دعنا من معاهد العلم. انها تنقل ما في
الكتب. وفي الكتب ما من طائل أمر عن موخوس. خذني
إلى اوساط من لم يَدْخلوا المدرسة. لعلهم لا يزالون
يتناقلون بعض الحكايات عن الذري الأول.

وبعد هنيهة كان الاثنان يتجهان إلى المرفأ وتروح
تسيطر عليه، اكثر فاكثر، جلبة صيادي السمك ومتشيطنة
صغار يتصايحون.

— هؤلاء، قال الاسوجي، هؤلاء وددت لو اتكلم
لسانهم.

قال الصيداوي:

— سلهم ما تشاء وأنا أترجم.

قال الاسوجي:

— عبثاً. ينبغي لي أن أتعلم لغتهم. لغة كل يوم. لغة
حبهم وشقائهم: حكاياتهم المتوارثة، وأحلامهم التي
تدغدغ المخيلة الخام. سرّ موخوس؟ انه دفين ولا شك
في طيات ما به يتصايحون، أو يقصّون أمام الموقد في
الليالي الشاتية عندما تضيّج العاصفة ويكاد البحر يأتي على
الأكواخ.

وكانا قد اقتربا من أربعة جلس كبيرهم على حجر عال.
وراح يكمل سرّ قصة:

— «... وذات يوم ماتت الحبيبة! ».

ولكنّ الشاب اللبناني لم ير في حديث الحب هذا ما
يهمّ عالماً يفتش عن سرّ الذي قال ان المادة ذرّات.
وتمرّ سنوات.

وإذا الصيداوي يلمح بين متصايحة المرفأ وجهاً يعرفه
ولا يعرفه. ولكنه أشاح عن الفكرة متسائلاً: ماذا! افي

المعقول أن يكون الاسوجي تعلم لغة تُحكى في لبنان
وليس الأسمال البالية وراح يشاطر هؤلاء الاشقياء ضناهم
وتشردهم، ليهتدي منهم إلى شتات قصة ضائعة تدور على
مفكر من القرن الثاني عشر ق. م. ؟
وتمرُّ أيضاً سنوات.

وإذا الصيداوي يُصغي إلى اذاعة أسوجيّة:
— ستستمعون، يقول المذيع، إلى قصة موخوس اول
ذريّ في العالم. انها عجيبة بقدر ما هي موجهة.
فأصغى اللبناني. أصغى بكل جوارحه.
« وُلد موخوس في صيدون، حاضرة الثقافة الأولى في
العالم الفينيقي.

« هو شاب فقير، ماتت حبيبته فجأة، وقد كانت بنت
كبير في المملكة، تغيّته خلسة في العشايا الواهجة مأخوذة
بطلعته الفارعة وتخيله الجريّ الطريف.

« فشقّ عليه موئها، حتى ظنّ رفاقه أنه سينتحر.
« ولكنه لم يفعل. وانما راح طوال عمره يتفكّر في
الموت.

« ما الوجود ؟ كان يردّد، هناك العدم الطاغى على كلّ

مكان، كُلُّ مدى. من العدم يقوم الشيء برحلة إلى الوجود.
أواه هذه الرحلة ! لو أضع يديّ على معمياتها. الشيء !
حتّم عليه أن يكون قد بقي فيه جزء من العدم، من طبيعته
الأولى. جزءٌ اقول ؟! ولكنه جزءٌ يُذهل. العدم كهذا
الفضاء، ولا بد، والشيء كهذه النجوم: رؤوس دبائيس في
وسادة كبيرة كبيرة. هذه الأشياء التي نرى نظنها كلّها
جماداً بجماد. من قال ؟ انها اكيداً كحياتي أنا: من عدم
هي أكثر منها من وجود. انا ! قد أُعمر. قد أُعمر طويلاً،
ولكن حياتي فراغ. بحرٌ من فراغ يدور فيه وجودٌ ضئيل.
يوم كانت هي معي كنت أكثر وجوداً، أكثف وأقوى.
أواه ! كل شيء فراغ: هذه الصخرة، هذه القطعة من
معدن، انها لتبدو صلبة ملاءى، وما ينبغي ان تكون صلبة
ولا ملاءى. انها مثلي قليل وجود في كبير فراغ. ولكن
عيني لا تريان. بلى بلى: المادة، في أسّ ما هي، أشياء
من الوجود قلائل في بحر من اللاشيء لا يُحدّد. ولكنها
تدور، إلى الأبد تدور ! ».

وختّم المتحدث يقول:

— هذا ما قصّه عليّ، ذات يوم في صيدون، أحدُ
صيّادي السمك، بعد أن أتقنتُ لغة لبنان وشاطرته وعائلته
ورفاقه عيشاً شظيفاً كالحياة.

« وقال لي إنها قصة يتناقلونها في أكوأخهم أباً عن جد،
وتُفرغها الأم خاصة في أذني ابنها متى أوشك ان يوفي
على المراهقة ويتعرّض لأن تُفلت من بين يديه إلى غيره، او
إلى الموت، حسناً حسان يكون قد قال لها في سويعات
النشوة: « أنتِ أنتِ الوجود. تكونين معي فأنا قليل يطير
وتذهبين فأنا الفراغ الكبير ».

سُرُّ الْعُصْفُورَةِ الْمُنَجَّحَةِ

كانت فريدةً بين العصافير.
ولكن زقزقتها كانت أقرب إلى أنة الجريح منها إلى
هتفة الفرّح.
وكان لا يجرؤ صيّاؤ على الالتفات إلى عنقها أو إلى
ذئبك الجناحين الطريفيين.
هي عصفورةٌ ناهار. جندي صيدونيّ بطل خاض
معركتي الترمويل وسلامين وأُصيب باثنين وستين جرحاً
ولم يمت.
ليس في المملكة من لا يُحبّ الجنديّ ناهار. انه ذو

البسمة الاسطورية. دائماً في طليعة المتطوعين، يحمّس الجنود، ويقصد الموت قصداً. وهو، فوق ذلك، لا يقبل الرُتب. « الحرب، يقول، الحرب ألدُّ الهوايات. انها فنُّ ملاعبة الموت ». ويضحك. ولكنه عندما قضت زوجته نخبها من ألم الفرقة، وهو غائب في الحرب، عاد لا يسري عنه الا هذه العصفورة التي ظهرت في بيتهم فجأة لا يعرف أحد كيف.

كانت طليقةً في حجرات ذلك البيت البحري القديم. ويفتح لها الجنديّ نهار نافذة شرقيّة فتطير تعشش فوق في غابة الأرز، أو تأخذ قسطها من الهواء والزقزقة والحرط على ضفاف الأنهر، ثم تعود تأكل الحب من على يده.

كثُر اللَّغَط حول حُب الجنديّ نهار للعصفورة الصفراء، وراح الصيادون في الغابات يتجنّبون قنص كل طير يشبهها. ورُكّب على ذلك ألف حكاية.

أما الجندي نهار فكان يتخلص من المتسائلين بقوله: — إنها جميلةٌ هذه الصفراء... —

وبقيت العاصفةُ مُستكنة حتى كان اليوم المشؤوم. ذلك صبيحةً اقتحمت العصفورة على نهار من الشارع نافذة حجراته — وكانت مقفلة — وراحت تضرب

بمنقارها على الزجاج. ففتح لها وحطت على مقعده بالذات. ثم أخذت تتفرس في وجهه وتطلق زقزقة حزينة لم يسمع مثلها طوال عمره.

وشوهد بدوره يسكب جماع لحظه في عينيها الحاكيتين، ذاهباً إلى عهدٍ من شرخ صباه غنيّاتٍ بالضوء، آونة كانت زوجة الصبية على قيد الحياة، ملء تلك الحجرة مراحاً وملء العنفوان.

— ناهار، قالت الزوجة ذات يوم، تراك تحبني ؟ برهن. إنني موجسة شراً من مغامراتك، في فترة من عمر الزمن، يأبى فيها الفرس إلا أن يتركوا المدى لخيطة حلمهم. لا لم أعد أطيق أن تصاب بجرح. ان جاءني من يقول: « مات زوجك » فقأت عيني بأظفري، وبأسناني ظللت أنهش جسدي حتى أموت.

— كفى كفى، يا أغيتي في الفخار، يا لَمع حربتي يوم النصر. السيف الذي ينال من جسمي لم يضرب، ولا بُري السهم الذي يمسني بأذى. إيل، اله الآلهة، هكذا أقر يوم وُلدت. أنا احد القلائل السعداء في الأرض فلأضع حظي في خدمة بلادي.

— من قال ؟

— أنا قلت. وهل كذبتك يوماً ؟

فتردُّ الزوجة:

— إنني اتبعك إلى الجحيم إن شئت، وأقول ان الشمس
عَتَمَة ان قلت. ولكنتي لن اصدقك في هذا. اخو الحرب
لا تكتمل لذَّته الا متى ذاق بفيه طَعْمَ السيف، او استقبل
بقلبه شَكَّةَ الرمح.

— أُسكتي أُسكتي كاد كلامك يركب لي جناحين.

— لا، ولي عندك، قبل أن تطير، رجاء احسبني مرضتُ
به مرضاً.

فيسكت الجندي نهار متهيأ، كأنه يوجس الطلب
المخوف. ثم يسألها:

— ماذا ؟

— أقسم بحبنا لتفعلن.

— أقسم.

— فتطوّقه بذراعيها طويلاً، ثم تُجهش بيكوة فرحة

وتقول:

— سدّد سهمك إلى صدري فإني أود أن أموت بيد

زوجي. أُحبُّك، يا نهار، احبّك ملء حياتي وملء الموت.

— مجنونة أنت، يا حبيبة الصبا. انتِ العمر وبهجةُ
العمر فكيف أقتلكِ ؟

— ولكنك وعدت.

— لا، لن أبرّ بالوعد الحرام.

— عهدي بك وفياً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك
لأنك بحبنا أقسمت. ان حبنا لعظيم.

راحت السنون تنطوي. كان على مصر ان تثور على
الفرس فلا بد للفرس من القيام بعمل يُقي على هيتهم:
هجوم على القارة البيضاء، على اليونان بالذات.

وكان على الحلف الصيدوني الفارسي أن يعمل أكثر
منه في أي زمن.

صيدون سيدة البحر، وبإمرتها سيجرد الفرس اسطولا
من ألف ومئتي سفينة وثلاث مئة مركب رديف.

ها هي الحواضر البحرية جميعاً في لبنان وقبرص ومصر
تعمل ليل نهار في اعداد السفن. وأمهاث الفرس والميديين
والآشوريين والهنود يقدمون فلذ أكبادهن لتدريب حربي
استغرق ثلاثة اعوام. لم يُعرف بالضبط عدد الرجال في
ذلك الجيش الخضم، ولكن اكثر من مائتين الأول، المزهو
بمجده وجماله، قاد اكيداً جيشاً كبيراً.

عَمِلَ الْجُنْدِيُّ نَاهَارَ مَعَ الصَّيْدُونِيِّينَ فِي بِنَاءِ جِسْرِ السَّفِينِ
عَبْرَ الْأَلْشَبُونِ، وَشَاهَدَ الْعَاصِفَةُ تَفَكُّكَهَ وَاكْزَرْسِيْسَ يَأْمُرُ
بِجَلْدِ الْبَحْرِ وَبِصَلْبِ الْمُهَنْدَسِينَ وَالْعَمَالِ الَّذِينَ بَنَوْهُ، فَلَا
يَنْجُو مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا هُوَ.

وَعَمِلَ مَعَ الَّذِينَ مَاتُوا وَهُمْ يَحْتَفِرُونَ قَنَاةً عَبْرَ الْبَرْزَخِ،
تَفَادِيًا لِدُورَانِ الْجَيْشِ حَوْلَ جَبَلِ أَتُوسَ. مَاتَ الْكَثِيرُونَ مِنْ
رِفَاقِهِ وَلَمْ يَمُتْ.

وَقَاتَلَ فِي التَّرْمُوزِيِّ الْمَمَرِ الضَّيِّقِ الَّذِي لَا تَعْبُرُهُ مَرْكَبَةٌ،
وَقَاسَ نَفْسَهُ فَيَمُنْ قَاسَ - بِالسَّبْعِ مِائَةِ تَسْبِيٍّ وَبِالثَّلَاثِمِائَةِ
اسْبِرْطِيٍّ، يَقُودُهُمْ لِيُونِيدَاسُ الْعَظِيمُ، أُولَئِكَ الَّذِينَ نَفَخَتْ
فِيهِمُ الْبَطُولَةُ أَنَّ « اِرْمُوا النِّرْدَ إِلَى الْمَوْتِ »، حَتَّى إِذَا
تَحَطَّمَتِ اسْلِحَتُهُمْ قَاتَلُوا بِالْأَظْفَارِ وَالْأَسْنَانِ. مَاتَ الْكَثِيرُونَ
مِنْ رِفَاقِهِ مَمْرُقِينَ بِالنَّوَاجِزِ وَبَقِيَ حَيًّا.

وَدَخَلَ فَيَمُنْ دَخَلُوا ظَافِرِينَ إِلَى أَثْنَةِ الْعَظِيمَةِ وَقَدْ رَاحَ
تِيْمَسْتُوكُلُ يُقْنَعُ أَهْلَهَا بِالتَّخَلِّيِّ عَنْهَا إِلَى مَا سَمَّاهُ هَاتِفَ
دَلْفَ « سَوْسَ الْخَشَبِ »، عَانِيًا بِذَلِكَ أَسْطُولَهُمْ فِي
سَلَامِينَ. وَشَهِدَهُمْ يَغَادِرُونَ الْمَدِينَةَ صَامِتِينَ مِنْ جَرَحٍ، وَمِنْ
حِينَ إِلَى آخِرِ مِلْتَفَتَيْنِ بِلِحَاطٍ تَجْهَشُ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا
يُؤْمَلُونَ عَوْدَةً.

وناضل صدراً لصدر، وقفز من على صارية في معركة
سلامين حيث تجمع الأسطول اليوناني الخفيف تنازل سفنه
الأربعمئة أسطول الفرس الذي بناه الصيادنة من ألف سفينة
ضخمة كقصور للأوقيانوس. أغرز أظافره في جلده لقبول
الملك الفارسي بان يقاتل في خليج سلامين، وهو الذي
يعلم ان القطع الفينيقية انما صنعت لعرض البحر لا
للأحواض. بلى شهداء في البدء تسحق كل سفينة
صدمتها، ولكنها تروح فيما بعد تؤخذ بخناق المدى
ويضيق بعضها على بعض، حتى إذا وصل عدد من عمائر
الأغارقة المرنة راحت تتلقى ضربات قاتلة. كان على
الأسطول الصيدوني أن ينتزع المعركة لصالح الفرس،
ولكن عناد اكرسيس بقبوله القتال في هذا الوضع حول
هدف الفينيقيين من نصر إلى انكفاء مجيد ينقذون به جيش
الفرس ناقلين بقاياهم إلى فالير.

وشهد الشمس تغيب موجعة الشعاع على ثلاثمئة ألف
أبقوا هناك لحرب برية يؤمل فيها النصر ولكنها ستروح
تحمل صرير الأسنان من خيبة سلامين.

في كل تلك المعارك، مات الكثيرون ونجا هو.
ورأى أيضاً ملك الفرس، المنتصر إلى أمس، يتنقل من

فشل إلى فشل فيُضمَر أن يُنزل بالصيادنة — كأنهم السبب
— الضربة تلو الضربة، حتى لتنمو فيهم بذرة الحقد على
الحلف الصيدوني الفارسي العريق.

وإذا يُقفل الجندي نهار إلى صيدون يخبرونه ان زوجته
ماتت.

هذا، مع عزة فينيقية المحطمة في سلامين، كان ينكأ
جرحاً في صدر الجندي نهار ويجد صورة له أوجع
ترسم في عيني العصفورة الصفراء المحذقتين اليه.

— لا، قال للعصفورة، لا تتفرسي بي هكذا، يا سيدة
الطير، يا أميرتي، يا حلوتي بين الحلوات.

ولكنه ما يكاد يلفظ « يا حلوتي بين الحلوات »، حتى
يفطن إلى أنها الكلمة التي كان يناجي بها زوجته قتيلة
الفراق.

أما العصفورة فقد بدا في لحاظها، بسبب هذا النداء،
مثل حنين عاصف. وراحت عيناها تتبدلان لوناً حتى
لتقربان من عينيّن يعرفهما جيداً الجندي نهار.

وعندما حاولت أن تطير، قافلة إلى عُشِّ لها في غابة
الأرز العالية، أهاب بها الجندي نهار أن قفي.

ولم تأبه لصوته المتهذج.

وعبثاً ردّد النداء، وقد استلّ من جانبه قوسه وغمس يده
في جعبته منتقياً سهماً لم يعرف كيف ركّبه ولا كيف وثر
له الوتر. حتى إذا أرنّ صوت النبلّة في الخارج وشهد
العصفورة تقع صدمته الحقيقةُ وصرخ:

— هي هي التي أرادت أن تموت بسهمي. لقد جاءتني
تطلب ذلك بعينين لم يوجعني في حياتي أجملُ منهما.
وتذكّر كلمة التي ردّها خائبة:

— عهدي بك وفياً، يا ناهار. وستفي. ستقتلني بيدك
لأنك بحبنا أقسمت. إن حبنا لعظيم.

بُوم سَقَطَ تَيَرُون

كانت حصونُ فخر الدين الثاني، المزروعة من انطاكية
إلى سيناء، قد سقطت الواحدُ تلو الآخر.
إلا تيرون.

وكان فخر الدين بنفسه يقاوم في القلعة الشاهقة.
وفجأةً دخل عليه القائد سمعان.
— نفذت الذخيرة.

— في العنبر السابع حجرٌ محفورٌ عليه خطَّان متوازيان.
انزعوه. إن وراءه مخبأً أسلحة.

وقفل القائد راجعاً، فأكمل فخر الدين الثاني الحديث
وكانه يناجي نفسه:

— وفي القلعة مثلث ثمانية عشر.

« يمكنني ان اقاوم أشهراً في تيرون، القلعة الاثيرة،
قلعتي أنا. بنيتها متحسباً لك شيء ».

وفيما كان يُسمع تبادل النار، اذا بانفجار يهتز له
المكان، فيقهقه فخر الدين:

— انه من ذخيرة المخبأ.

ويسكت صوت البارود.

— ينبغي ان يكون الانفجار فعل فعله. انها زحلة أرض.
أتت على العثمانيين.

ولكن فخر الدين يعرف انها هُدنة ليس إلا. فالعثمانيون
لن يكفوا. سيعيدون الكرة بقوات اجد واشد. ها هو
يستجمع الذاكرة يسترجع الايام:

انه لطفل يعيش في كسروان عند بني الخازن. يكبر
فيخبرونه ان العثمانيين قتلوا جده، وابوه مات قهراً،
والدروز ذبحوا ذبحاً في عين صوفر. وبرغم ذلك قدر أن
يقتطع لنفسه في الشوف امارة صغيرة. وشرع في تكبيرها.
ولكن قبل أوان. انه ليقلق الآستانة وهو لما يشتد ساعداً،

فُتهددهُ الآستانة، فيضطر إلى ركوب البحر، إلى الانكفاء.

ها هو الآن في فلورنسا، عاصمة العالم، عند صديقه
غرندوق توسكانه، ينزل قصرأً جميلاً.

انه لا ينسى زيارةً بعينها من زيارات صديقه له،
وخصوصاً حديثاً بعينه دار بينهما في ذلك القصر اختتمه
الغرندوق بقوله:

— أنت من طبقة الملوك الكبار يا فخر الدين الثاني.

كان الامير اللبناني قد فاجأ ضيفه بالقول:

— هذه المرة اتممتُ خططي: سأرجع إلى لبنان،
سأستردّ مملكتي.

— ولكن...

— لا « ولكن »، يا عزيزي الغرندوق، كل ما اطلب
سفينة تقلني الى شواطئ بلادي. الجبل على نار.

« لن تطأ قدمي أرضَ لبنان الا وتسري القشعريرة من
قمة إلى سيف بحر، ويكون تحت امرتي الوف الخيالة ».

— وسلطانُ اسطنبول، تراه سيسكت ؟

— مراد الرابع، سيكون اعجزَ من ان يعاديني صراحة.
سيراوغ. سيُغدق عليّ الالقاب. قد يعترف لي بسلطنة

تشمل كيليكية ومصر، شرط أن لا ازعجه. ولكنه سراً
سيعمل لقتلي. الا أن شعبه سيرغمه في النهاية على
محاربتني.

— مغامرة إذن ذهابك، يا فخر الدين، وان لم تضمن
روح تركية في جانبك فعبثاً تمنّي النفس.

— لا ليست تركية الدولة الولد لتركني أقوى. ولكنني
على أيّ حال يجب أن أغامر. قد اتغلب على اسطنبول. قد
احتلها. كل هذا متوقف على بطانة مراد الرابع.

— ان كان هؤلاء اشداء طموحين وارسلوا اليك العدد
العديد؟...

— ولهذا أيضاً اتخذت الحيلة. أكثر ما يقدر عليه
العثمانيون ان يقتلونني. ولكنني اكون قد عملت للبنان
شيئين يقيان، فيقيان على لبنان إلى الابد. اكون قد جعلتُ
هذا الجبل يرتعش رعشة البطولة. هو، منذ عشرات السنين،
قابع لا ينفجر بحدوده. سأطلقه من عقاله. سأبعث النار في
عروق فتياه. وإلى أن أنكسر ويثوب العثمانيون من الوهلة،
أكون قد جعلت للبنان المعاصر سجل بطولات. العنفوان !
انه وحده منجم البقاء.

— والشئ الثاني الذي تعدّه، يا عزيزي الامير ؟

— الشيء الثاني تعلمته عندكم في توسكانه. امثولة
فلورنسا، فلورنسا العظيمة، لن تبرح ذهني، فلورنسا لا
تموت. وقد لا تموت أوروبا لأنها اطلعت بضع مدن من
مثل فلورنسا. عاصمتي، عاصمتي بيروت الحسنة، ستكون
غداً أجمل من فلورنسا. عذراً، يا عزيزي الغرندوق.
سأجعلهم يقولون: « في العالم ثلاث مدن: أثينة وفلورنسا
وبيروت ». لن أبقى عندك على مهندس معمار، لي أبقى على
مصور، لن أبقى على رُخامة في مناجم كراهه. كل ذلك
سأجذبه إلى لبنان. وفيما أنا أشغل العثمانيين بالمعارك
سيكون افذاذُ العالم يخططون مع اللبنانيين، وينون،
ويصورون، وينقشون الصخر، لتنهض بيروت في الجو آية
عمران وفن.

« آواه، يا عزيزي الغرندوق، لو تعرف بيروت. أنها
أجمل موقع على المتوسط: يحرسها جبل مكلل أبداً
بالثلج، أما البحر فيمتدُّ عن جانبيها إلى جونه وصيدا في
أروع سيف تلالاً على شاطئ.

« هذه المدينة ان اقمْتُ فيها القصورَ والملاعب ودُور
العلم والتمثيل، وحفرتُ إلى بناء معابدها بالرخام، ونقلتُ
اليها من الجبال حدائق وغابات صنوبر، ان جعلتها المدينة

الأولى في العالم: مطارقُ البنائين تُسمع فيها من آخر الأرض، وعلية القوم تقصدها تستمتع بالشعر وباشياء الجمال وبعمارات الرخام المخرم، عندئذ قل لي أفلا يغدو لبنان ضميرَ العالم ؟ وهل يعود ضمير العالم ليرضى بأن يلوّثه المدفع العثماني ؟ انت، انت نفسك، يا عزيزي الغرندوق، لتجيشن الجيوش، إن داهم الخطر، وتطيرُ إلى حماية المدينة التي تنافس فلورنسا.

فيقول الغرندوق مازحاً:

— اواثق، يا فخر الدين، بأنني في دخيلتي لن أغار فأرتاح لدمارٍ يأتي على مدينة تضارع مدينتي ؟

— لا، يقول فخر الدين، لن تمر الصغارة ببال حفيد المدسيس: انت وآباؤك عملتم للجمال أكثر من اليونان. يستحيل أن يخون المدسيس الجمال.

يقطب الغرندوق حاجبيه، ويخفق ابتسامةً اعجاب بفخر الدين، بينما تطفر من عينه دمعة حلوة. ثم يسأل صديقه: — ولكن هل يكون بمقدورك ان تقوم بهذه النهضة من عمران ونحت وأدب ؟ ان ذلك ليتطلب أكثر من استيراد. أو بلادك أهلٌ لان يُشتل في ترابها هذا الشتل السريع العطب ؟

فيقول فخر الدين:

— بلادي اطلعت صيدون وبعليك ويبروت. إلى بيروت
حجّت الدنيا تشقف يوم كانت مدينتنا ارقى عواصم
الامبراطورية الرومانية غير منازعة. وفي بعليك اليوم لا أكبر
هياكل العالم وحسب وانما أجملها أيضاً. ولا أظن فناً
يتشوّف إلى منافسة بعليك. اما صيدون فلن تعرف مكائنها
إلا إن جمعت أثينة إلى فلورنسا إلى باريس. بمدنيّتها لا
بالسيف فتحت العالم، واليها قصدت الحسان يلبسن
ويتصيغن وقصد أهل اللهو والمعرفة يمرحون ويستمتعون
بالثقافة في أول طلوعها. يقال ان أبا العقل الاغريقي كان
صيدونياً. شائعة؟ ولكنها تكفي. وهو ميروس، على أي
حال، لم يتكلم على أحد كما تكلم علينا. قال إننا « شعب
الآلهة » و « حملة لغة الآلهة ». لقبان كهذين لا يطلقهما
المرء الا على أهله.

كان فخر الدين قد وصل من خيط تذكاراته إلى هذا
الحد عندما سمع جلبة في الحصن.

ودخل القائد سمعان:

— ماذا ! هل شاهد منظارك عودة العثمانيين ؟

— أهول من ذلك، يا مولاي: اهدوا إلى النبع الذي يغذي القلعة. وضعوا السم في الماء.

— لا عليك، لا عليك، جأر فخر الدين. مُر الجنود بالخروج. سنقاتل في العراء. سنشرب الماء من ينابيع لبنان البلورية.

وفيما هما على هذا وصل ساع من بيروت. وفوراً ادخلوه على الأمير. فاذا به يحمل منشوراً كانت القيادة العثمانية توزعه سراً على جنودها.

تناوله فخر الدين وراح يقرأ. حتى اذا وصلت عيناه إلى سطر بالذات اخذت لحيته ترتجف: « إياكم، تقول القيادة التركية، ان تبقوا على عمران في مدينة، ولن تكون بيروت أجمل من اسطنبول ».

واستوضح الأمير لهيفاً:

— هل شرعوا في الهدم ؟

فقال الساعي:

— لم يُقوا على عبود ولا على حجر رخام.

عندئذ تحجرت عينا فخر الدين. وحذق القائد سمعان إليهما مستطلعاً ليرى مثل بوسفورٍ يستقبل جثةً ورأساً مقطوعاً.

سِرْفِيَّانَا

لربما، لأنهما سيلتقيان، كان الحبّ على الأرض.
أما يندا فالعازف الأشهر في مملكة راحوب، وأما
مرغيانا فالجميلة بين الجميلات.

— تحبّني، سألته يوماً ؟

— وسّع لفتة جبالنا وطموح الدفة في طُراذفاتنا قاهرات
الأوقيانوس !

فقلت:

— ولا أكثر ؟

فتناول كنّارته يحاول وقف الزمن في نغمة تقول حُبّه،

فإذا موجة رعاء تتخطى صخرة الشاطئ التي كانا يقتعدانها
في تلك العشيّة الواهجة، وتغمرهما من رأس إلى قدم،
فيهربان غاطسين في الماء، ضاحكين ضحكة مألحة فرحة.

وهكذا لم تتكلم الكنّارة.

لأن هوجة من بحر أّخرت جوابا عن سؤال عروسه،
أضمر يندا أن يُطلع من كنّارته نغماً ما سمعت مثله
الأرضون.

أعوام خمسة انقضت ويندا منقطع عن أهله، يجوب
ممالك آرام وكنعان، في جوع إلى ما هو أوسع من لفتة
جبال تحاور النجوم، ومن طموح في دقة طراذفات
أتعبت الأوقيانوس.

عاش الصباغين في صور مُطلعي الخيط المجلوب من
الصين أرجواني اللون كأفق من دم، والحياكين في
صيدون ذوي الأنوال التي تطرز وتزركش. وساهر دودة
القرّ منذ هي بويضة ستقات بورقات توتهم إلى أن تنسكب
شالا على عنق صيدونية أنيقة تجتذب إلى مدينتها سيّدات
النخبة في العالم.

فاجأ مصانع الزجاج والبلور في الصرّند تبتدع مرايا

العرائس وخرز العقود والمزهريات التي تزين جميع
بلاطات المتوسط.

كدح وتصبب عرقاً إلى جنب المعدنين مستوردي
قصدير بريطانية، وفضة إيبارية، وكورباء البلطيق، وذهب
أوفير التي عبر الأطلسي.

استمع إلى العائدين من نهايات الأرض يجوسونها في
سرداب عمودي يجففون ماء بالدافع اللولبي ويستخرجون
معادنها الخام يسحقونها في مطاحن ماء ويغربلون ويصفون
حتى الخلوص.

انبهر مع القادمين من أقاصي المعمور يُحدّجون بأعينهم
أقراط الذهب والكؤوس والشماعد والافاعي المعدة
لعبادات مصر، وصوالج الملوك المرصعة بالياقوت والزمرد،
والتماثيل المنحوتة من رخام، والموائد والمقاعد والمراكب
المصنوعة من أرز وصندل، وأمشاط العاج، وصحاف
الخزف الرفيع الوشي.

تغنى بالخمرة تُعصر مدللة في اعالي الجبل، منذ هي
حلم في الجفنة المُعرّشة إلى ان تمات بارجل الحسان،
وانشد الزيت يساقط ثمراً عن الزيتون والنخيل ليعبأ حياة
لؤلؤية في الجرار.

سَكِرَ برائحةِ البحرِ والبعدِ تَهَبَّ من أثوابِ الذين تعاملوا
مع الدنيا واستعمروها لأنهم أعطوها جديداً.

تمرّس بالبنيان مع المعمارين يزرعون البسيطة قصوراً
ومعابد، قُباً وأعمدة مشيقة كأنها منبرٌ للشمس.

قلِقَ مع دهاقنة السياسة في مجالس الشيوخ يشهرون
الأسنة أو يردونها بكلمة.

عن كلِّ ذلك أخذ،

وبقي في جوع !

اصيب بدوار الفلكيين يجسّون نبضَ الاغوار الكونية،
وتدرّج مع مقولات الفلاسفة يقسرون الزمنَ على البوح
بسرّه.

تعلّم من أحد حفدة موخوس هجاء المادة، ومن الذرة
إلى النجم كانت له كل يوم رحلة،

وبقي في جوع !

سمع من قال له: « انت نصفُ الطريق بين الجُرم
الفَلَكِي وذرة موخوس. وأعجب ما فيك عقلُك الذي
يعرف ويعرف انه يعرف ».

استنفد شرخ الشباب في الغوص على غياهب الفكرة

منذ هي غبش يتحسّر ذاته إلى أن تغدو نظريةً علميةً
تقول العجب.

عرف فرح المعرفة، ابداع من عدم،

وبقي في جوع !

وذاث ليلة، فيما هو على قمة سدير، حدّق إلى القبة
المكوكبة، وكان قد سمع طفلاً يقول: « لو بلغت احدى
قممنا لأعملت مقلّاعي في النجوم... » فمرّت بباله فكرة
كائن اسمى مبدع للوجود، وشعر أنه لن يبلغ من المعرفة
ابعد، فهبّ وكأنه قد أمر، إلى كتارته ينقر.

اللازورد الآن يشيع في النغمة، غنياً واهجاً كخذ،
ولياالي الدهر المكوكبة تتجمّع في توقّف وتجعل الغصن
في الجوار يقلق، وآونة يبلغ شأؤ الآلة حدّ السكون ثم
يضجّ ليموت، فليبعث في مجد، فليأخذ في اللعب كأنما
التقت صواعق وهدير بحر وقمم، أو عندما يلين البثّ
كأنما ياسمينات الدنيا تلاقت تبوح بعطر مستحيل، في
تلك الهنيهة، فيها بالذات، يَخْتِم. فاذا الغصن الذي لم
يعرف اللين يترنّح، وحنجرة البلب التي خفيث تولد من
جديد، وما لم يولد للحبّ يُحبّ.

وشعر يندا انه اصبح حقاً عازفاً عبقرياً، وانه بات في مقدوره أن يقول لحبيته القول الذي تنتظر.

إنه الآن لَيَنْهَبُ المسافات قاصداً اليها في راحوب، المملكة التي تبعد ليالي طوالا. نعلاه تيريان من الركض وتتفتّان، والحصى تدمي رجليه كأنما تأخذ من المجد فريضة. مقدام، عنيدٌ يستهدف وطنه مباشرة، غير سالكٍ طريقاً، فَيُمزّق العفصُ والبلوط اثوابه وجلده، وتهبّ العاصفة برعد وسكب ماء وشجر مقتلع تحاول عبثاً ثنيه ودعوته إلى قليل راحة.

اخيراً، عندما يوفي على مديتهم حافياً، نصف عار، مجرّح عَضَل، يلتفت إلى كنّارته فاذا هي ايضاً مهشمة الخشب، مفظومة الاوتار، الا واحداً. فيكاد يضرب بها الارض، باصقاً معها الحياة، هذه الرفيقة الغالية التي طَمِع بان يرفعها إلى مستوى الكون والحياة او إلى أقدام عرش الله، لتكون خليفةً بجواب تنتظره الحبيبة.

إلا أن جنازة تُطلّ فجأة من وراء تلة، فيسأل: « من ؟ » فيقولون: « مرغيانا »، فيصرخ بالكثارة أن « قومي أولم اغدّ مبدعاً ؟ او ما يحقّ لي ان احيي الميت ولو مرة ؟ ». وقيل انه عندما راحت خشبةً بين يديه ذات وتر وحيد

تَبَتْ النِّعَمَ الْفَرَحَ، مَرْقِصَةً رَوْحَ الضَّوءِ فِي مَخَابِئِهِ، كَانَ
النَّاسُ يَرُونَ كَنَارَةً تُزْهِرُ تَحْتَ أَصَابِعِ مُبْدِعٍ.

أَمَّا مَرْغِيَانَا الَّتِي يَقُولُونَ أَنَّهَا لَمْ تَسْمَعْ الْجَوَابَ — وَقَدْ
ظَلَّتْ تَنْتَظِرُهُ طَوَالَ الْحَيَاةِ — فَلَمْ تَكْمَلْ طَرِيقَهَا مَعَهُمْ وَأَمَّا
رَمَتْ بِنَفْسِهَا مِنْ فَوْقِ النِّعَشِ لِتَسْتَلْقِيَهَا نِعْمَةً لَا تَزَالُ بِهَا
تَطِيرُ.

السِّلَاحُ اللِّبِّيُّ نَائِي

عندما تُذكر أشياء الفكر، الفكر في مناخاته العالية، لا
تخطر على البال سوى مدن قلائل. منها بيروت.

فاذا كانت أثينة اختُصَّت بالحكمة، وفلورنسا بالجمال،
وباريس بالذوق فان بيروت اختُصَّت بالحق.

الحق ؟ وهل بعده بعد ؟

أول ما تتكلم الاساطير على قِدم بيروت. انها وجبيل
بِتْنا إيل بالذات، إيل إله الزمن.

من هنا الزعم أنها اقدم مدينة في التاريخ.

لكنّ هذا الفخر، صَحَّ أم لم يصحَّ، يظلُّ ثانوياً ان هو
قيس بفضل المدينة على يقظة الحق في ضمير العالم.

قبل تأسيس مدرسة الشريعة بنحو الف وسبعمئة سنة،
شُهرت بيروت بسنخوني أتن. مؤرخ قيل إنه عاش قبل
موسى، إذن أقدم مؤرخ. تناول علوم الفلك ومنشأ المُدُن
الفينيقية والاديان والتاريخ العالمي. وقبل هيرودوتس بنحو
الف سنة كان له أن يُدعى « أبا التاريخ ».

وأهم منها انعقاد الاجماع على أن سنخوني أتن كان
عادلاً.

العدل أوّل صفة تُطلق على ابن بيروت، على علامتها
القديم العظيم ؟

تراها الدلالة على انه انما كان يلزم المدينة ارثُ عدالة
يرقى إلى عصور وعصور قَبْلَ العهد بمدرسة شريعة؟
وأن قيام مدرسة الشريعة فيها انما جاء نتيجة طبيعية لما
كان لها من سابقٍ شغفٍ بالحق ومن عريق خدمة له ؟
ذات يوم كانت طالبةٌ بارية، يخصُّها العلامة بول
كولينه باعجاب أشبه بحبٍّ، تسأله بلهفة:

— في أيّ مدينة ينصحني المعلم بأن أدرس الحق ؟ في
باريس أم في ليون ؟

فيقول كولينه:

— أنتِ مُوسرةٌ، يا حسنائي الشفافة، لماذا لا تذهبين إلى

بيروت ؟

كانت الفتاة صديقةً لطالب لبناني من بكفيا. فحُيِّل إليها، لأوّل وهلة، أن الأستاذ العلامة انما يُعرّض بها. ولكن سياق الحديث رَدّها إلى مزيد من صواب فادركت ان العالم كان حسنَ النية. قالت:

— ماذا ! مدرسة بيروت الحديثة أفضلُ من معهدي

باريس وليون ؟

فيقول كولينه:

— ان للارث العريق فعالية دونها الكمال. كلُّ استاذ في مدرسة بيروت، كل طالبٍ فيها، لا بد أن تواكبه أمجاد من بيروت يستحيل ان تضارعها أمجادٌ من أية مدينة في العالم.

وختم كولينه نصيحته قائلاً:

— وأوصيك، أن اصبحت كما اتوقعه لك، بان تفكري في جَمْع الوثائق التي ستساعدنا يوماً على وضع تاريخٍ لمدرسة بيروت خليقٍ حقاً بالمعهد الذي لا يزال يشعُّ إلى اليوم.

وحزمت الفتاة امتعتها وقصدت إلى الحاضرة اللبنانية.

لكنها مرضت بين مرسيلية وجنوى.

و ذات صباح لم تستيقظ.

شق الامر على كولينه، وبقي طوال حياته يعد نصيحته
مسؤولة عن موت الباريسية الحسناء.

وهكذا كان يعدّها الطالب البكفاوي.

تعددت زيارات كولينه لبيروت، منقّباً مرة، ومرة
مسهماً في ادارة اللجنة الفاحصة، ودوماً دوماً جامعاً
الوثائق أو متصلاً بمؤرخي جامعة القديس يوسف التي اليها
تنسب مدرسة الشريعة الحديثة.

ملف تاريخي ضخّم كان لا بد من فتحه والاكباب
عليه.

وكان وضع مقدّمة على المدينة العظمى موضوعاً شغل
كولينه ردحاً من الزمن.

انه هنا أمام عالم من الامجاد جمّ الحقول. وافراغه في
الورق كان يستدعي تأليف مجلدات ضخمة.

منذ عهد التزاوج بين الآلهة والبشر يُذكر عن الشاطي
الفينيقي أنه أطلع شهماً أسطورياً مثل برسه يُنقذ من التّنين
اندروماد الجميلة. ستتكرر الحادثة على اسم مار جرجس،

فاذا الفارس القديس رجلُ الشهامة في المسيحية وساحته
هذه المرة بيروت بالذات.

ويتحدثون عن ازدهار المدينة يجعلها حاضرة العلم
طوال العهد القديم، وعن تقليد يزعم ان المسيح زارها، ثم
عن شغف لأباطرة الرومان بها سواء قبل ارتقائهم العرش أو
بعده. انطونيوس، اغسطس، فسبازيان، طيطس،
كونسطانس جميعاً قصدوا بيروت وسكنوا بيروت.
وسكنتها جوليا السعيدة بنتُ اغسطس، تلك التي، لوفرة
تعلقه بها، راح الامبراطور الوالد يزين المدينة بملاعب
ومعاهد علم ومراسح وقصور وهايكل تضارع جميع ما في
رومة، ولا يفوقها نقشاً وفخامة سوى هايكل بعلبك.

لسوف يتذكر فخر الدين الثاني كل ذلك. فيحاول،
عقب عودته من توسكانا، أن يسترجع لبيروت مجدها
المفقود، بل ان يتخطاه مؤملاً ان تصبح عاصمة لبنان
عاصمة العالم.

سوى ان ذلك، على روعته، يبقى ثانوياً ان هو قيس
بيروت مدينة الحق.

منذ القرون الاولى للميلاد، بُنى مدرسة بيروت
الحقوية. وتروح تطرد شهرةً حتى لتبلغ الأوج في منتصف

القرن الخامس، فتعد العالم الروماني — وهو يومئذ العالم كله — بمفكره وقدسيه ومشرعيه وساسته معاً. وذات يوم في عهد الامبراطور اللباني الكسندروس ساويروس يكون وزراء روما، جميعاً تقريباً، بما فيهم رئيسهم، من مدرسة بيروت.

إلى مدرسة بيروت قَصَد الطلاب من بلاد العرب وأرمينية وآسية الصغرى وبيتينية وشمال الاناضول والكبادوكية وكارية وكيليكية ومصر وما بين النهرين وأوروبة واليونان والقوقاز وايليرية وليسية والاسروان وفلسطين وبنفالية وايزيدية ومكدونية وسورية.

وتمضي المدرسة في ازدهار وقطف أمجاد حتى يُعترف لها بان لقب « معلمين عالميين » لن يُطلق الا على أساتذتها.

ولعل أجمل ما يؤثر عنها أنها ومدرسة القسطنطينية تفردتا بوضع ما سوف يُسمى الشرع الروماني، وأن الامبراطور يوستنيانوس، الذي لا يزال اسمه مقروناً بالشرع إلى اليوم، فوّض إلى اثنين من أساتذتها، هما أناطول ودوروته، القاء آخر نظرة على المدونة اليوستنيانية.

وفي جغرافية الاكسبوزيسيو نصُّ خليق بأن يترجم

بالحرف: « أن تعليم مدرسة بيروت أصبح اساس كل الدروس الحقوقية في العالم ».

واتجهت أنظار المعمور إلى بيروت كمركز عمل حقوقي من شأنه وحده أن يوحد بين شعوب الأرض. فعقب كل حرب، عندما كان يتجدد الأمل بايجاد صيغة للسلام العالمي، كانوا يقولون: لا يُستبعد ذلك ما بقيت بيروت في الوجود. وفكر مفكرون في العمل على أن تتسلم بيروت مصائر العالم.

جمع كولينه عن المدرسة الشهيرة معلومات لا تثنى سوى أن الحجم الذي عيّنه لكتابه ضاق بكل ذلك، فراح يحذف دون أن يفارقه الشعور بأن شيئاً من قلبه ينسلخ. على أنه ثار لنفسه بأن وضع على جِلدة الطبعة الاولى من كتابه « تاريخ مدرسة بيروت الحقوقية » بضعة ابيات من ملحمة الشاعر الاغريقي نثوز من شأنها ان تعوض.

واليك بترجمة الابيات:

« لن تنمحي النزاعات الدامية المدمرة،

تلك التي تفتك بالشعوب،

إلا متى غدت بيروت،

قيمة على راحة الحياة وعلى طمأننتها.

مسيطرةً على البحر والبر،

موطدةً سُبُل القوانين،

مستأثرةً بالحكم المطلق على جميع مدن العالم ..

عندما كانوا يشيِّعون جثمان بول كولينه كان في
المودعين شابٌ أوفى على الرجولة، هو البكفاوي الذي لم
يكن يفتخر للعلامة الحقوقية تشويقه لفتاة عمره ان تذهب
إلى لبنان... إلى آخر تلك اللوحة المحزنة...

وفيما كانوا ينصرفون راح هذا يسلم من تحت ابطه
كتاب كولينه « مدرسة بيروت الحقوقية » ويمزقه صفحةً
صفحة ثم ينثره على القبر كباقة من زهر.

كانت الريح تُنسيم قليلاً، وإلى البعيد تحملُ نُفثاً من
أوراق الكتاب..

واذا اسم بيروت، مقروناً بالسلام العالمي، يتطاير في
الهواء مع أشعار تنوز وذكرى الحبيبة الغالية.

عَشِيَّةُ الدَّمِ

— اخبار صِقْلِيَّة، هي أخبار صِقْلِيَّة !...

هذا ما جأر به ماغون، شافِطُ البحر، بعصية وغضب،
فيما كانت قدماه تزرعان أرض القاعة، جيئةً وذهاباً.

— وبعد ما تراك ترتقي ؟ سألته زوجته.

— أرتقي ؟ قرطاجة على مفترقِ طُرُق. نَذَرُ أجدادنا
صورَ الجديدة هذه لعشثروت لا لملقرت. اقسمنَا ألا
نسفك دماً. وصبرنا على المكاره وتعريضِ الشرف وفاءً
لما ارادت إلينا المؤسسة.

« ضحت بنفسها لكي تمنعنا عن امتشاق السيف.

« وعلمت: « السلم أشد فتكاً بالعدو ».

« الشافطون الذين وُلّوا الحكم قبلي حفظوا الوصية.

« في عهودهم كان ذلك محتملاً.

« اما اليوم !... ».

واحسّت زوجة الشافط ان رجل دولة آخر اخذ يولد
في ثوب زوجها.

كأنها عادت لا تجد ماغونا في ماغون...

فتوسّلت إليه بحنان:

— لا، لا تفكر هكذا.

كانت خائفة. شبّح راعب كان يرسم لعينيها
الجميلتين.

فطمأنها بذراعيه اللتين طوقتاها أنيقتين حارّتين.

الا أن قامته المديدة وجبروت جسده كانا يتناقضان مع
طيبة قلبه.

— لا تبكي، يا عزيزتي. زوال الدنيا ولا دمة من هاتين
العينين.

فسألت:

— وزوال قرطاجة ؟

وانتظرت جواباً.

لكن ماغون أفلت من بين ذراعيها.

وكانت بنت الشافط قد دخلت، وحضرت أواخر
المشهد فساورتها هواجس خلاف بين أمها وأبيها، وظنت
ان وزير البحر، على تعلقه بزوجته، ستركها إلى الأبد،
فتدخلت:

— أبي، أو تذهب إلى بلاد نائية ؟

فلم يسمعها.

كان قد أصبح في الرواق خارجاً، وسُمعَتْ جزمته
تخبُّ على درج القصر.

وتولت الأم طمأنة الفتاة:

— لم يتركنا إلا إلى قرطاجة !

فاستوضحت الفتاة:

— يُحب قرطاجة أكثر مما يحبك، يا أمّاه ؟ ان ابي
لعظيم. إنه لمن يُعبدون.

ماغون الآن في حدائق شافطية البحر، يلطف من حدة
نظرتة بتسريحها على الشجر النضر.

الليمون أزهر وعبق الجو بالشذا. وعلى غصن خفيّ
صوت بلبل يكرّ...

— لا، لا، كاد يقول، هذا الجمال لن نخذشه بصوت
الأسِنَّة.

« ان مجلس العموم لا يريد الحرب، ومجلس الأعيان
متأرجح بين بين... وكلمةٌ مني تميل كِفّة الحرب.
» يضايقونا في صقلية.

« نحن لم ندخل تلك البلاد بالسيف.
» المعول الصوري لا يتعرّض لأرض شعبٍ إلا ليغدق
عليها الخير.

« كان الصقليون قبل عهدهم بنا حُفّة عراة. عرفت
نسوتهم بعدنا أناقة الصيدونيات والقرطاجيات، وفلاحهم
عرف الرخاء. علمناهم التجارة، العلائق بين البشر. ادخلنا
حتى النقد إلى بلادهم، ادخلنا العدالة.

« انا، انا شافطُ البحر في قرطاجة، ليست لي كلمة بين
متنازعين صقليين. الكلمة للمحاكم التي تعمل بوحى الآلهة
والضمير.

« ولكن اذا استمرت صقلية في اضطراب،
فستضطربنا...

« ان لسلطاني مسؤوليته أمام سلامة قرطاجة، سأستل
السيف، يا صقلية ».

كانت الشمس قد تسلطنت وبدت وطأة الهجير
شديدة، عندما خرج شافطُ البحر من حدائقه متوجّهاً إلى
ندوة الأعيان.

وفي الليل، في الهزيع الأخير من الليل، بعد عودته من
الندوة، توقف امام سرير زوجته يريد ان يضمّها. ولكنه
رآها نائمة في اغماضة الربّات.

أخذ يمشي بتؤدة، خشية أن يُسمع لجزمته وقع يخذش
غفوة زوجته، ذاك الذي سيرجف اليونان غداً في صقلية.

مُعْتَمِدُ الْعَالَمِ

صبيحة ١٨ آب من عام ١٨٢٦ علت صبيحة في ساحة القصر من بيت الدين. وما هي حتى انفتح شباك الكُشْك، ففهم الحرس أن الأمير سمع. فخفّ اليه أحدهم.

— امرأة، يا مولاي، تلمس مقابلك. عرضوا عليها مالاً، رفضت. وهي تأتي إلا أن ترى مولاي.
— أدخلها.

المرأة الآن في حضرة بشير الثاني، في الكُشْك، الذي كان يدلف اليه قبيل الظهر يدخن الغليون ويستقبل بعض رجال البطانة.

أنيقة، شاحبة الوجه على جمال.

— أنا من عين غنوب يا مولاي. مات زوجي تاركاً لي ولداً طفلاً وثروة. ربيت الولد من فضل ربي وخير مولاي. وكنا على أسعد حال، لولا أن جاءتنا هذه السنة بسلفة لي أرملة، كانت مهاجرة في بلاد الفرس. سلفتي هذه أبرزت وثائقُ تثبت أن زوجي مدينٌ لزوجها بكل أملاكه. فسلمتها الأملاك.

فبهت الأمير :

— فعلتِ هذا ؟!

— فعلت لأنني مقتنعة بأن الأملاك هي حقاً لها.

— والآن ما تريدین؟

— إبنی أتمَّ تحصيله في فلورنسا وهو يجيد ستَّ لغات. ما أنا لأرضى بأخذ جُعالة من أحد. كلُّ ما اطلب ان يعمل مولاي على اقناع ابني الشاب بان يستخدم. مصرف طلياني في بيروت يعرض عليه عملاً حسناً لكنه هو يرفض.

— جيئني بابنك.

— انه يأبى، يا مولاي.

— يأبى ؟ لا عليك... نحن نتولى جلبه.

في اليوم التالي كانت المرأة وابنها في بيت الدين.
الشاب في السابعة عشرة، وسيمُ المحيا، نبيل الإشارة،
مُتزنها.

— لماذا، يا بني لا تقبل العمل في المصرف الطلياني ؟

— عفوَ مولاي، لا أُحِبُّ الاستخدام.

— ولكنكم أصبحتم في عوز.

— هذا صحيح. بيد أنني أُؤمل ان نخرج من المحنة لا
في أمد بعيد، بإذن الله. سأؤسس في منطقتنا مدرسة، وانني
بصدد تدبُّر المال.

فقاطعته الأم:

— قد يتأخر المال، يا مولاي، وقد تنجح المدرسة وقد
لا تنجح، والصيرفي الطلياني في بيروت ليس عبدنا. لن
ينتظر. لربما اهتدى إلى مستخدم وضاعت الفرصة !

فضرع الفتى إلى الأمير:

— وددتُ ان لا يتأثر مولاي بأقوال والدتي. عاطفتُها
تتكلم. وتتكلم معها الحاجة التي أخذت تعضُّنا من جراء
شهامتها. هي التي سلّمت زوجة عمي التركة جميعاً. خير
ما عملت: ان قبلتُ الاستخدام، يا مولاي، فقد أنزلتُ إلى
التجارة. التجارة لا أحبّها. أريد ان انخرط في سلك

التعليم. شيء لا يابھون له في الشرق. الدولة التركية تحتقر
معلم الصبيبة. تضعه في عداد الذين لا تُقبل لهم شهادة.
سأمحو لطحخة العار عن أشرف المهن. للبنان، يا مولاي،
ماضٍ في التعليم لا تجوز خيانتُهُ. لو أُعطيت عرشاً لما
تخلّيت عن أُملي بأن أصبح معلم مدرسة في لبنان. معذرة،
يا مولاي، إن أنا امتدحتُ نفسي. نادراً ما يجوز للمرء ان
يمدح نفسه. لكن النادر ليس المستحيل. كنت أُلَمع تلميذ
في فلورنسا. وهناك عُرض عليّ أن أُدرّس. لكنني آثرت ان
اعمل في وطني. قريباً سأؤسس المدرسة. هو حلمي منذ
أنا طفل.

كان يتكلم وحاجبا الأمير الكشيفان يرتقصان من فرح.
وما هي حتى قام عن طرّاحته ودعا الشاب إليها:
— اقعد.

ثم التفت إلى الحاجب:
— المعلم نقولا، هل هو في القصر؟ قل له أن يتلطف
بالحضور. كذلك قل للمعلم بطرس كرامي. وليبعثوا
مرسلاً إلى الشيخ ناصيف اليازجي.

انقضى يومان والشاب وأُمّه ضيفان على الأمير. حتى اذا
قدّم المعلم ناصيف — وكان يرافقه ولدان صغيران، الواحد

في نحو الثانية عشرة والآخر في حدود السابعة — واكمل
عقد المثقفين الذين يؤلفون البطانة، أدخلوا جميعاً على
بشير الثاني. وكان الضيفان قد سبقاهم إلى المثل بين
يديه. فقال للشاب:

— حدث أصدقاءنا حديث أول أمس.

فقال:

— معذرة، ايها السادة، كنت التمس مساعدة مولاي
في اقناع أمي بان لا ترغمني على قبول العمل في مصرف.
أنا شاب قَيِّض لي أن أحصل في توسكانا، وأود أن أؤسس
مدرسة في الجبل. هذه كل قصتي.

فقال الأمير:

— أول أمس تكلمت على التعليم وكيف أنه أشرف
مهنة. وقلت أنك تؤثره على توليك عرشاً ان عرض عليك.
ذكرت ان للتعليم في لبنان اياماً مجيدة او شيئاً من ذلك.
هل لك أن تعيد الحديث على هؤلاء السادة ؟ اقرب مني.
إقنع هذه الطراحة. هنا هنا. هؤلاء الأئمة يفتحون قولك.
انهم رجال معرفة. لم تقل لهم انهم، في فلورنسا، عرضوا
عليك أن تُعلم، فرفضت مؤثراً ان تعمل في لبنان. لماذا،
لماذا لا تتحدث اليوم شأنك أول أمس ؟

فشكَّ الشاب بعض الوقت ثم رفع عينيه.

— ما قلته، ايها السادة، أمرٌ عادي، لولا أن مولاي
تنازل وعطف عليه. على أيِّ حال، سأحاول أن اتذكَّر ما
أرضى أميرَ لبنان.

ويروح الشاب يقص قصة التعليم في لبنان. ها هي أوَّل
مدرسة في العالم تتأسس — على ما يرجِّحون — في
جبيل، وإن أُجريت حفريات على شواطئ فينيقية فلا
يُستبعد أن يُعثر على كتب محفورة على الحجر، كانت
تدرِّس في مستهل التاريخ. ثم يُطلُّ عظام العالم: هذا مارك
أوريل الامبراطور الذي وضع في الخُلُقِيَّة ما يُعتبر، بعد
أسفار الدين، أجملَ كتاب خطَّته يدُ البشر. انه تلميذ معلِّم
من عندنا هو مكسيم السوري. هذا كاتون الأوتيكي.
عقب اعلان حكم الطغيان يتحرر مردداً: « لا يعيش كاتون
بعد أن ماتت الحرية ». انه، هو أيضاً، تلميذ معلِّم من
عندنا اسمه انطياتر السوري. هذا يوحنا فم الذهب،
أخطبُ خطيب اطلعته المسيحية، انه تلميذُ للبيانوس،
المعلِّم الذي أسس مدرسة في انطاكية، وكان يسند دخله
دخل كرم بقي له في شمالي لبنان، وإعجاب المفكرين به
قصده الناس من أقاصي الأرض يتلمذون على فصاحته قبل

ان يصبحوا قديسين أو أباطرة. هذا شيشرون أخطب خطباء الدنيا. انه، هو بدوره، تلميذ معلم من عندنا يدعى زينون الصيداوي.

وتطول قصة المدرسة في لبنان. تطول مجيدة، بينما حاجبا الامير يستمران يرتقصان من فرح. حتى اذا يقول الشاب: بلى، ايها السادة، يمكننا، كما ترون، ان نضع كتاباً بعنوان «كُنّا معلمي معلمي العالم»، تنحدر دمعان كبيرتان على خديّ الأمير.

وقيل أنها المرة الأولى التي بكى فيها بشير الثاني.

وفي اليوم التالي كان صغيران، جاءا بمعية الشيخ ناصيف، يزوران الشاب في غرفته الفخمة.

هذان كانا قد بقيا في الباب عندما راح الشاب يتكلم في حضرة أمير لبنان. ولكنهما سمعا الحديث جميعاً. لم يُعطيا ان يمثلا بين يدي الأمير، الذي انشغل عنهما، مع ان اليازجي كان قد وعد ذويهما بأن يقدمهما له، لوفرة ما يتوسمه فيهما من ذكاء.

— انا اسمي يوسف، قال كبيرهما، يوسف الاسير، ورفيقي اسمه بطرس، بطرس البستاني. جئناك لنتعرف إليك ونعلنك اننا متى كبرنا سنفتح، نحن أيضاً، مدرسة في

الجبيل، لنكون خليقَيْنِ بالسلك اللبناني الذي أطلع مُعلّمي
معلّمي العالم.

وكانت أمُّ الشاب تسمع.

فالتفت نجلها إليها.

فاذا هي تبسم. ويتسم لها الصغيران.

قَابُجَا

كان قد رآها، في إحدى رحلاته إلى صيدون، تلمّ
زيتوناً في ظاهر المدينة. وتَحَمَّلَ نظرتها القاسية وهي
تُخرس على شفته كلمة « احبك ».
منذ ذلك اليوم، عاد لا يذكر من الدنيا سوى عيني
سوداوين.

وراح يقنع والده، القائد المتقاعد، بأن تَنَقِّلَ أسرته من
عسقلان إلى صيدون، مدينة النور.

— تريدنا إلى السكنى في مملكة عدوة ؟

— لا تتكلم هكذا، يا أبي. ومنذ متى نحن اعداء

صيدون ؟ كان الشعبان واحداً، يوم غزونا الفراعنة وحكمنا
بلادهم. كلا شعبينا فرع من حلف الهكسوس. عرفنا
المجد معاً. انه لإثم ان نحرض الفلسطينيين على الصيادنة.
كان القائد يُصغي إلى ابنه واصابعه تضرب بعصبية على
منضدة أمامه.

— هكذا تشاء السياسة، يا بني. اقتصادنا في ورطة. لا
نجاة لفلسطين إلا بموت صيدون. نصف ذهب العالم
مكدس في صيدون.

قال، فاذا لقوله وقع الصاعقة على الشاب الذي نظر إلى
والده نظرة مرة، ثم ترك الحجرة.

— يلتسا.

— من ؟ هذا انت ؟ منذ متى تناديني باسمي ؟ لا
نصيب لك عندنا، ايها الفلسطيني: قد يرضى والدي، اما أنا
فلا. عُد إلى بلادكم، ايها السيد، ما انا سوى فلاحية بنت
فلاح. انت ذو ثراء وجاه. وبنات فلسطين حسان.

— يلتسا ! ما جئت لهذا. لقد خنقتُ خاطرة الزواج.
أما حبي فله علي شأن آخر.

« اسمعي: هل تحبين صيدون ؟ ».

— بلادي ! إنها كل شيء بعدالة الآلهة.

— إذن أدي قسطك من حمايتها.

— لم أفهم. وما معنى « قسطني » ؟

— صيدون في خطر. أسهمي في الدفاع عنها.

— مضحك أنت، أيها الفلسطيني. صيدون سيّدة البحر،
من يجرؤ ؟...

— هناك شعبٌ شقيق يستعدّ لمهاجمتها.

فقهقته:

— يهاجمون صيدون ؟ إمضِ إمضِ... لا نصيب لك
عندنا.

فانتفض الشاب، وراح يقبض على كتفيها بيدين
موجعتين ويهزّها كأنه يحرك منها الصميم:

— قلتُ انني أبعد ما أكون عن خاطرة الزواج. المسألة
أكبر منك ومني. يجب أن تذهبي إلى مجلس الشيوخ في
المملكة. وسألقنك خطاباً تلفظينه فيهم.

— انا، الفلاحه، ألفظ خطاباً ؟!

— نعم انتِ.

فازدادت ضحكاً:
— لم أطمع بقراتنا بعد.

— إسمعي يا بِلْتَسَا: كان، في قديم الزمان، شعبان
متآخيان. فاتفقا وغيرهما من الشعوب المتحالفة على غزو
بلاد الفراعنة. كان الفراعنة لا يقتنون الخيل. فتغلبوا عليهم
بها وحكموهم نحواً من مئتي سنة. وأخيراً دار دولاب
الزمن وثارث مصر وتمكنت من طرد الشعبين ورفاقهما.
هل تفهمين؟

— هذا افهمه.

— وافترقا في الهزيمة: شعبٌ ذهب إلى بحر إيجه،
الذي كان قد استوطنه أقرباء له، والآخر عاد إلى بلاده، إلى
بلادي.

— ولماذا لم يرجع الشعب الأول إلى وطنه؟

— رجع فيما بعد. فلحق به ملك مصر يُقتل منه
ويذبح. ثم رضي عنه وأسكنه غزة واشدود وعسقلان.
— هذه مدنكم.

— أجل مدُّنا. استوطننا فلسطين مشتقين اسمها من
اسمنا. ونمونا في ارجائها. وها نحن الآن نطمع بمهاجمة
صيدون.

— أممکن هذا ؟ الأخوانِ ويقتتلان ؟

— منهاجم صيدونَ الليلة. حملتنا دُبرت بتكتم مطلق.

« الشعب، عندنا، لا يعرف إلى أين سيقوده قواده. ستؤخذ صيدون غفلةً من حيث لا تتوقع.

— الليلة ؟! حذارِ ان تكون كاذباً. أقسم.

— بعينيك السوداءوين أقسم.

* * *

ندوة الشيوخ في صور تُعنى بشؤون الصيادنة النازحين بعد دمار مدينتهم وسلبها كنوزها ومحتوياتها الثمينة.

توحدت مجالس المملكتين وخطب الأعضاء متوعددين. وتكلم بعضهم وهم يجهشون بالبكاء.

ولكن الجميع وضعوا المستقبل تحت شعار كلمتين: « أمل وعمل ».

في تلك الجلسة الخطرة تقرّر تكبير صور: وصل ما بين الجزر الثلاث، بناءً باليصور على الساحل، خصّ ملقارت وعشروت بأفخم هيكلين في العالم.

وعندما خطرت بِلْتِسًا فجأة بين الحضور. هتف أحد النواب الصيادنة: « هذه هي. الفلاحة التي أنذرتنا. راحت

تهَدَدنا بالقتل ان لم نُعلن النفير العام. أهلها جميعاً ماتوا في
المجزرة .»

فتحَمَّس لها أعضاء الندوة. واقترح بعضهم ان يخصصها
المجلسُ بمعاش تُعطاه مدى الحياة، وتقدّم نائبٌ موسر
بطلب يدها.

فرفضت الأمرين.

الحياة تسير سيرتها القديمة في كنعان والناس يتعودون
النكبة.

أما يَلْتَسا، فقد راحت تعيش من حليب بقرة تُربضها في
ظاهر صور. تماماً كما كان أهلها يُربضون ماشيتهم في
ظاهر صيدون.

على أنها كانت، كل يوم، متى فرغت من عملها،
تجمع باقةً من الورد وتحملها إلى قبر تقول لسائلها فيه انه
قبرُ زوجها.

وفيما يروح بعض الصيادنة، الذين لم ينسوا، يلعنون
إسم فلسطين، تقول هي: «أما قلبُ فلسطين الحقيقي فقد
رأيتُه يخفق شريفاً بين يديّ.»

زَوِيَا وَالْإِسْكَندَرِ

ذات يوم أوقف العسسُ في صور جاسوساً إغريقياً.
وعذبوه كَيّْاً بالنار.
فباح بما أقلق البال.
— الاسكندر، قال، سيتّوج نفسه عاهلاً على الشرق
والغرب في مدينة صور.
الاسكندر ؟ ابن فيلبّوس المقدوني ؟
لم يكن يغيبُ عن بال أحد، في الممالك الكنعانية،
أخبار الملك الشاب.
كانت ظروفٌ عَجَبٌ قد جاءت بأبيه إلى عرش اليونان

جميعاً، وصدفةً أعجب جعلت الابن يرث الملك دون
أخيه.

كان قد سيطر على أثينة رجلٌ يقدّس العقل واليدَ
المُبدعة. بركليس بن ملتياذ بطلِ مارتون. فاستخدم جميع
أموال الحلف الاغريقي لجعل أثينة عاصمة الفكر إلى الأبد.
عندما جاء بالمهندس إكتينوس وبالنحات فدياس
للتصميم قال لهما: « أريدكما تطيران. أموال أثينة واسبرطة
وثية جميعاً في امرتكما، وكلٌّ من تتوسمون فيه العبقريّة ».
وعندما كانت أثينة تخرج من الازميل محفورة على
اللازورد، بيضاء، مرمرأ بمرمر، أو تنجبُ شاباً يرهف
عقله، حتى ليرسل الخواطر عرائس ساحرات، كان
بركليس يقول: « لا لن يحرق الأغارقة عليّ. الأغارقة
يحبّون الجمال. سيغفرون لي أني بددت مالاُ جُمع لصيانة
الطمأنينة، أو لفتح الممالك، وأقمت بدلاً من ذلك أثينة
العظمى، تلك التي ستفتح لهم أبواب الكون والزمان ».
وكان الأغارقة، عند ظنّ بركليس.
لكن أصابع الفرس راحت تلعب.
وبعد موته أمكنها أن تنجح.
مدّ الفُرسُ أنحصامَ بركليس بالمال، ومدّوا حزبه بالمال.

حتى عمّ التناحر الداخلي، فراحت السيادة تتدحرج بين
أثينة واسبرطة وثيبة، وأخيراً بينهن جميعاً وبين مقدونية
بشخص الملك فيلبوس.

كان فيلبوس، في زمن ما، أسير ثيبة. ولكنه عاد وأفلت.
وراح يدرب جيشاً سقطت أمامه الحاضرة تلو الحاضرة،
حتى دانت له بقعة من الأرض تمتد من بحر إيجه إلى
الدانوب.

ومات أولمبياس، أم الاسكندر، والاسكندر طفلاً بعد،
فنشأ محروماً حنان الأم. لدعة أبقت له شراسة لم يخفف
منها تحصيله العلم على يد أرسطو.

إلا أنه أخذ، عن ذلك العقل الفريد، حب الحقيقة،
والثقة بها، ومعرفة نظم التفاصيل بالكل.

وذات يوم كاد ينطفئ الاسكندر قبل ان يصبح
الاسكندر.

كان ذلك لخلاف في القصر يتأكل الفتى وكليوبترة
زوجة أبيه.

ففي أثناء مأدبة شرهة، بلغ الغضب بفيلبوس المختمر أن
استل سيفه للاجهاز على ابنه. ولكنه سقط على الأرض
لشدة حمياه. وسقط سيفه.

وهكذا نجا الشاب.

وترك المملكة.

وكانوا قد فرغوا من اقناع فيلبوس بالتنازل لابن
كليوبترة.

لكن الملك مات قبل أن يُحقق إرادته.

عاد الإسكندر إلى البلاط، فتى نزقاً يستخف به الناس.
ولكن ما هي ضربة منه حتى عرفوا فيه تلميذ أرسطو.

الفرس أعظم دُول الأرض إطلاقاً.

الفرس أعداء الأغارقة.

ذات يوم داسوا أثينة ودنسوا آلهتها.

الفرس، هؤلاء، حان لهم أن يعرفوا الجواب.

درب النابغة الشاب، طوال سنتين، جيشاً من أربعة
وثلاثين ألف مقاتل. وتوجس الناس خطره في كل القارات.

— « أقسم ابنُ فيلبوس ليتوجنّ في صور ملكاً على
آسية وأوروبة ؟

« أقول لكم: الاسكندر لن يترك وراءه ممالك غير
مفتوحة. والا أبقى اليونان مكشوفة.

« هذا لا يعني انه فعل. سوى ان المقدوني الشاب
عنيد »

هذا ما اختتم به خطابه مِرديا الشيخ، داهيةً صوري
عَجم السياسة وعجمته سحابة خمسين عاماً.

وبعد أشهر كان الاسكندر ينصبُ جسراً من الزوارق
على البوسفور ويشكُّ سيفه في الشاطئ الشرقي يطمره في
التراب، مبقياً، كما قال، مجالَ تمجّد لمن سيبحث عنه.
— الاسكندر على أبوابنا، زار مِرديا في البرلمان
الصوري.

— لا، أجابه آخر، انه سيتوجّه إلى عاصمة داريوس.

— صور هي الطريق إلى داريوس.

— تتشاءم، يا مِرديا. تراك بتّ تخاف ؟

فلم يتنازل مرديا إلى الردّ. واستطرد:

— أو يترك المقدوني أساطيلنا سليمة ؟ لم ينس الأغرقة
« سلامين ». كانت نصراً لهم. ولكن سفننا هي التي ردتّه
باهظ الثمن. توجب تقوية الاسطول وتعزيز تحصينات صور
الجزيرة.

— صور لا تُغلب، قال سياسيُّ شاب.

فوقف الجميع ورددوا النشيد الذي مطلعُه « صور لا تغلب ».

إلا الشيخ مرديا. بقي صامتا يتأكل أسنانه الغيظ.
ولما أتموا النشيد

— مرة غلبت صور، قال لهم بهدوء، فلتكن عظة.
واتخذ الشيوخ قرارات خطيرة في جلسات دامت ليلي
ثلاثاً متعاقبة.

لكن مرديا بقي غير راضٍ.
وسمع ذات يوم يقول:
— سيضطرونني إلى العمل وحدي.

جيشا الفرس والأغارقة يتجابهان الآن عند انطاكية.
داريوس الثالث على رأس ثلاثمئة ألف مقاتل،
والاسكندر متوغل في مضيق ليلان على رأس جيش يقال
حُفنة.

— صبي من صور في الخامسة عشرة يريد مقابلة
الاسكندر.

— ليدخل.

وما هي حتى أخذ جيش الفاتح يتراجع.

ولكن داريوس هرب في اليوم التالي، مُخلفاً في ايسوس تسعين ألف قتيل، وعشرة آلاف فارس، وأسرى عذبيين بينهم أمه وامراته واخته وابنه وبناته وعشرات الوصيفات. وترك وراءه ثلاثة آلاف وزنة من فضة.

ما كادت تصل الأنباء إلى صور حتى انعقد البرلمان بجميع أعضائه الا مِرديا.

— كان يستقبل وفداً من لدن الاسكندر، جاءه يقدم شكر بطل ايسوس، وقد حمل اليه هدية ثمينة من ثلاثين وزنة.

فقام المجلس باجمعه إلى قصر الشيخ.

— المسألة سهلة، قال مِرديا للمستوضحين، وددت ان لا أورط صور، فورطت نفسي.

« عندي هذا اليتيم ربيته منذ هو في الثانية، فكبر، لا ذكياً ولا مسدود الذهن، ولكنه يلذ له حل المعضلات.

« هو اليوم يناهز الشباب. اليس كذلك، يا اسكندر؟ عذراً لقد نسيْتُ أن أقول لكم انه، هو أيضاً، يسمى باسم رجل اليونان، لصدقة أو لغير صدقة.

« ما عملتُ يوم غلبتموني في البرلمان؟ أرسلتُ الاسكندر الصغير إلى الاسكندر الكبير. ويبدو انه وفق. مرّ

صدفةً بجبل داغ، فرأى كيف تسيطر جحافلُ الفرس
الجرارة على تلك القبضة من الوف الاسكندر.
« وكان أن نصح المقدونيّ باخلاء المكان ».

وقال الصبيّ:

— وصفتُ له الموقع، فاذا بنا ننتهي إلى الاستنتاج
الواحد: ضرورة التراجع إلى ايسوس.
« وانتصر ».

راح الجميع يطرون دهاء الصبيّ.

وعرض عليه رئيس ندوة الأغنياء منصباً حكومياً.

— لا لا، قال مِردِيَا، إنّ له شغلاً في قصري أنا. عندكم
قد يصطيدم بمن يخلون على حصوننا بالمال.

كان قد اقبل الهزيع الثالث من الليل، ولأنّ بعضهم لم
يستطع ان يعضّ يد مِردِيَا، قبلها ووضعها على رأسه وتمنّى
له ليلة طيبة.

— الاسكندر يهاجمنا.

ماذا ! بعد انتصاره في ايسوس، وفقاً لخطة فتى
صوريّ، يروح يجزّي صور ناراً وحديداً ؟
هذا ما كان يتخطّى عقولهم في المملكة.

ولكن الحوادث كانت تجري سراعاً.

استسلمت له أرواد نفسها. ولما رفض عروض الفرس،
الا اذا اعترف له داريوس بمُلك آسية، قامت صيدون إلى
استقباله.

الفتاح يقترب.

صور الآن مُوحدة!

وقرطاجُ بعيدة.

وقام أعضاء البرلمان إلى دار الشيخ مرديا.

— صديقك، قال احدهم، صديقك يهاجمنا.

— ما قولك لو نسميه صديق الذين أبوا عليّ تحصين
المملكة؟

فوجموا للحجر يرميهم به مُصياً.

— انكم خونة، تابع مرديا، ولسوف تُصلبون على
الشاطئ واحداً واحداً!

فعمّ الاستكثار. وخرج البعض من قصر الأسد. لكنهم
ما لبثوا ان رجعوا يستعطفون الرجل الذي تكهن، منذ
البداية، بالمصير المخيف.

— سنرسل إلى الاسكندر وفداً لينا قاسياً، قال رئيس ندوة الأغنياء، فهل تُريد ان يكون فتاك في اعضائه ؟
— لا، زار مرديا. ولو أن الاسكندر قادرٌ قدرَ خدمتي له لما هاجم مدينةً كنعانية.

ودخل حاجبٌ يقول: « رسولٌ من لدن الاسكندر يريد مقابلة الشيخ مرديا ».

واستقبله الأسد بحضور اعضاء البرلمان.
وشعر الجميع بأن الرسول مكلف ابداء اُصدق كياسة.
حتى اذا اخذ يُلمع إلى مطالب صعبة، قال مرديا موضحاً:
— أفهم من أقوالك أن سيّدك لا يودّ فتحَ صور، ولكنه يودّ ان يضحّي فيها لئلا يملقارت.

— هذه، بالتمام، رغبةُ الاسكندر.

— أو يصرُّ عليها ؟ استفهم مرديا.

فبدا الرسول حازماً.

فزأر مرديا:

— إذن، أبلغه رفضَ البرلمان الصوريّ. وقل له: قد يحطّم الاسكندر صور التي لم تُغلب. لكنها ستقضيّ الزمن بين يديه.

وخرج الرسول.

وقال رئيس ندوة الأغنياء:

— تصرفك نبيل، يا مرديا. يدخل الاسكندر ولكن على جثتنا جميعاً.

وعندما خرجوا من قصره كان الأسد فرحاً.

وراح يردد:

— « يدخل الاسكندر ولكن على جثتنا جميعاً » هذه،
هذه كلمة صور.

في مدى أسبوع ذهب الاسكندر الصغير، ربيب مِردِيا،
ثمانِي مَرَّات إلى الاسكندر الكبير.
ولكن عبثاً.

فبعثه مِردِيا مَرَّةً أخيرة يَرِد إلى الاسكندر هداياه.

ولما عجز الاسكندر عن انطاق الصغير ولو كلمة،
أدرك ان مِردِيا انما قصد بذلك قطيعة النهاية.

لم يمضِ يومان حتى كان الفاتح على ابواب صور.
تُراه أوجس ما سيكون من مصيره، أمام الحاضرة
المتشامخة، فسَلَّ سيفه وقال: « مدينة البطولة سلام ؟ ».

بلى، لأول مرة، تهيب بطل ايسوس عدوًّا.

رأى ان احتلال باليصور — مدينة اليايسة — امرٌ صعب
فاضطّر إلى انزال نخبة الجيش ثم حرسه الخاص.

ثم أدرك أن عملياته على اليايسة ليست الحرب التي
اعدّها له الصوريون. ان هي الا تحويلُ نظر وكسبُ وقت.
المعركة الساحقة الماحقة، تلك التي ستبرهنُ فيها
الحاضرة الكنعانية عن ازديادٍ للحياة محبة بكرامة الحياة،
هي معركة صور الجزيرة.

إن الذين اعتزموا أن ينتصروا، أو يموتوا على بكرة
أبيهم، كانوا يعرفون ان يتغلبوا على الفَجَع والترَف ثم على
الجوع والعطش.

— تُرى كان للصوريين سراديب تحت البحر، تمدهم
بالمأكُل والمشرب، أم أنهم يعرفون، كبعض الثعابين، أن
يأكلوا أشهراً ويصوموا أشهراً ؟

وانقضى على الحصار نصفُ عام، وكان المعركة لا
تزال في البداية. وكان فتیانُ الجزيرة يوجهون إلى جيوش
الاسكندر، مع السهام، رُقمًا كُتِبَ عليها بالاغريقية: « تعلم
كيف الحرب، أيها الاضحوكة... ».

ويغضب قواده للالهانة. فيقول:

— وَحَقَّ زَوْش لكَأَنِّي أَتَعَلَّم !

وأقلع عن الحصار. ثم أمر بأن تردم الترعَة التي ما بين
المرفأين: الصيدوني والمصري. فشغل نصف جيشه بقطع
الشجر والصخر، وبدك القصور ودحرجة اعمدتها الضخمة
إلى المضيق. بيد أنها كانت طويلة ومضنية تلك العملية.
نهكت الجيش وأضحكت البحر، صديق الصوريين.

ولكن الأنقاض تكثرت !

عندئذ هبّ الصوريون إلى العمل.

ارتجلوا عصائب من السباحة الاشداء يغطسون إلى قعر
المياه، ويُسهّلون لأدوات الاسكندر سيراً على بركات
التيار. فينهار ما يكون قد نصب الفاتح. وتنهار آماله.

وتجري معارك في البحر، صدرأ لصدر. ويُطعم
الصوريون اسماكهم من زهرة أبناء مقدونية.

ويسيّرون براميل من الزيت والكبريت، في مثل
الأشعة، حتى اذا وصلت إلى عصابة من عمال الاسكندر
انفجرت نيرانها عالية تكوي وتشوي.

ويرى الاسكندر أن يضرب فينيقية بعضها ببعض،
فيسخر اساطيل صيدون وجبيل وارواد وقبرس، يأمرها بصدّ
المهاجمين وتحويلهم عن المشتغلين في بناء الجسر.

ويرى الصوريون، أخيراً، أن الحرب يجب أن تبدأ
وبدأوها.

حملوا على اسطول قبرس فدمروا ثلثيه.
إلا أن الأسكندر كان قد توقع الامر، فاعد لهجوم
معاكس ينشب فور تعب الاسطول السوري.
وهكذا لم يُعطِ الاسطول السوري هدنة، بل كثر من
الشمال موقعاً أبطالنا بين نارين.

انقضى سبعة أشهر على الحصار، وقّل المأكل، وصعب
تكرير مياه البحر لتوالي الهجمات. وراحت النسوة في
المدينة يغرين ازواجهن واولادهن بالحلى إن هم قاتلوا رُغم
الجوع والعطش.

وكانت بعضهن ترمي بولدها إلى البحر، أو تقتل
نفسها، صارخة في وجه زوجها: « لم يبق شيء. إمض
إلى المجد ! ».

ورحن يتفنن في التضحية، فتقصد السباحات، افواجاً
افواجاً، إلى الأسطول المقدوني، فلا يصل من الفوج سوى
واحدة...

ولكنها تكفي !

ها هي بارجةٌ مقدونيّةٌ تنفجر. ويتطاير نارٌ ورجال.
الا أن للبطولات حدّاً، ولو أنها من هذا الضرب العجيب
وابطالها، كذلك، نسوة.

وشعرت صور الجزيرة بأنها هالكة، فتنادى القواد
وعقدوا مؤتمراً تحت النار والشواظ، لم يستغرق سوى
دقائق، خرجوا منه ووجوههم تطفح بالبشر.

وقيل أن امرأتين، من اللواتي استبسلن في الأسطول،
اشتركتا فيه مسموعتي الصوت.

ما تقرر في ذلك المؤتمر ؟

سرٌّ طوي إلى الأبد.

كل ما يُعرف ان خمسةً من الذين ائتمروا قاموا إلى
البارجة التي يقاتل عليها الشيخ مرديا، يحملون اليه رقيماً
كتب عليه بالدم: « إن قواد صور الجزيرة، الذين اعتزموا
ان يمضوا في القتال حتى الموت أو النصر، يعيشون إلى
مرديا، قبل خوضهم المعركة كجنود عاديين، بتحيتهم له
على اثنين: انذاره المجلس قبل سنة، ومقاتلته — رغم سنّه
— في خط النار الأول ».

كان مرديا يتسلم الرقعة عندما لفته ريئبه:

— ها هو الاسكندر يُطلّ على السور.

ويصرخ مقدوني.

— الاسكندر يدعو الشيخ مُردِيا إلى مقابلته. ومن أجل ذلك يأمر الحملة المقدونية وحلفاءها بأن يكفّوا عن القتال.

ويتوقف السلاحان.

وتكون هنيهة صمت أكبر من التاريخ.

وتشخصُ العيون إلى بارجة مُردِيا.

ترى ما يفعل الأسدُ السوريّ ؟

إلا أن مُردِيا بدا على قادم السفينة وإلى جانبه رجلٌ يصرخ:

— إن مُردِيا يبلغ الجيش المقدوني وحلفاءه أنه يرفض مقابلة الاسكندر. أن الذي داس قداسة الأرض السورية لأشرس من الذي مزق شرف الصداقة .

وعاد المقدوني يقول:

— إن الاسكندر، الوفيّ لصداقاته، يؤمن ربيبَ مرديا على حياته.

وفجأة سُمع صوت الصبي:

— أن ربيب مرديا يؤثر الموت إلى جنب سيّده، على الحياة في بلاط الاسكندر.

عندئذ غاب الفاتح من على السور.

واستؤنف تبادل النار.

وراحت بارجة مُردِّيا — ومرديا على مقدّمتها بهيكله
العملاقي الاغبر — تخترق خطّ اللهب ترشق وترشق،
حتى احترقت بمن فيها.

صُلب على شاطئ صور ألفا مقاتل، وأعدم ثمانية
آلاف، وسُبي ثلاثون ألفاً، وبيعت النسوة والاولاد عبيداً،
وشئت شملُ الباقيين إلى قرطاجة. ولكن الاسكندر كان
يقول:

— اثنان توقف عندهما خيط حلمي: صورُ العظيمة
ومرديا أبو الذي أكسبني إيسوس.

الْفَضْلُ عَنْ وَجَعِ كِتَابِهَا

عام ٩١٢ للمسيح، كان في القصر الملكي بأريافان شيخٌ مهيبٌ ينازع.

الاطباء يدخلون عليه ويخرجون، ثم يتوجهون إلى مقاصير الملك يُدلّون برأيهم في سير المرض.

— هل من أمل ؟ يسأل سنحاريب.

— أملٌ ضئيل، يتمم بعضهم. ويسكت آخرون.

— ولكن، ما يقول هو عن نفسه ؟

— الحقيقة، يجيب كبير الاطباء، أن العالم الشيخ

ليضللنا. نُشخص حالةَ فيردنا إلى أخرى، ويروح يعث

ويضحك: ليتنا نقدر على تناسي شخصيته الطاغية.

وتتغصن جبهة سنحاريب.

— سنذهب نحن إليه. تعالوا تعالوا. قسطا بن لوقا
يجب أن لا يموت.

ويترك الملك قاعة العرش، فاذا بالباب طيب شاب
يكي.

— المعلم ينازع !

— هذا رأي، يُقاطع كبير الأطباء

فُيصرُّ الطبيب الشاب:

— يا ليت ! مع أن ذهنه في ذروة توهج.

فيحث الملك الخطي والجميع خلفه كأنما هم في
موكب.

ها هي الأعمدة من القصر الملكي تغيب خلف
الأعمدة، لا تقل مهابة عن وجه سنحاريب البهي إلى
تجهّم.

ويُصرون بعد يُطفئ النار في مجمرة من ذهب، معنقة
عالية، يرتفع منها دخان ندّ.

— لماذا ؟ يسأل سنحاريب.

— عفوّ مولاي، الطبيبُ الشيخُ تُزعجه رائحةُ النّد.
— أطفئها.

ويُكمل الملكُ سيره.

هو الآن امام مقصورة المريض الكبير.

فيقول قائل:

— الطبيب يُحشّرج.

فيتهيّب سنحاريب قبل الدخول، ثم يدفع الباب بتؤدة.

انه الآن لعند السرير، أمام الوجه الحبيب المتألق.

— أنا سنحاريب، يا عزيزي قسطا.

فيدير العظيم عينيه، فاذا هما ملائتان بالحياة، ثم تروح
ابتسامةٌ تلّون فمه.

— عُذراً، يا مولاي، هذه المّرة لن أقوم لك. المرض...

المرض...

فيصطنع الملكُ المَرَح.

— هذه المّرة، امسكتك يا ابن لوقا. قلت « المرض »
مرتين. لكم كنت تأخذها على المؤلفين. تزعمُ انك لا
تكرّر كلاماً. « أقلّ ما يكون من قول لاكثر ما يكون من

معنى «، « كَلَامُكُمْ اجعلوه من ضوء «، كنت تردّد في تلاميذك والمريدين.

فيهزّ الطبيب رأسه.

— تذكّر ذلك، يا مولاي ! ما أبعدنا عنه اليوم. ولكن أعني، رعاك الله، وددت لو أجلس.

ويحار سنحاريب: أيستجيب لطلب المدّنف الغالي أم يُحجم ؟ ويدرك قسّطا ما يجول في ذهن الملك.

— إفعل، يا مولاي، لا تخش : لا يزال بي بقيّة رمق. بوسعي أن أرحّب بك كالمعتاد، ريثما يزورني صديقي الموت.

فيعود الملك إلى اصطناع المرح.

— صديقك الموت ؟ ركّله برجلك، قال لي الأطباء.

— ضع زنديك خلف ظهري، يا سنحاريب العظيم. لآخر مرّة تمدّ يدك إلى طبيبك.

ويندفع فاذا هو جالس.

— هكذا. والآن نتحدّث. طمأنك الاطباء إلى أن هناك أملاً ؟ يعرفون مدى ما يكون من تأثرك فلا يصدقونك القول. اذكّاء هم إلى حدّ ان يدركوا انه لم يبق لي سوى

دقائق. قد تطول إلى أربعين، إلى خمسين. ولكنها، على أي حال، لن تبلغ الساعة. بيد أن وجود مولاي إلى قربي سيُفيد. وقد يزيدُها. تفرحُ في وجه من تحبُّ فتمدّه بقطراتٍ من إكسير الحياة. أتذكر، يا مولاي، يوم استقدمتني من بغداد ؟ هذا ليس امس. ولكنه كأمس. لقد عملتُ شيئاً هنا ! ألا تُقرّني ؟ اثنان وثلاثون كتاباً في الطب...

ويقاطعه الملك:

— وفي سائر العلوم ؟ في الفلك، في المنطق، في الرياضيات والفلسفة والتاريخ، هل تذكر كم كتاباً وضعت ؟

— لم يبلغ عددها عدد كتبي الطبية. حسبتها منذ هنيهة. كان أحدهم يفحصني وكنت أعدّ الكتب...

— وكم بلغت ؟

— عدا التي على الطب، تسعة وعشرين.

— أوائقُ بأنك لم تنسَ ولا واحداً ؟

— من التي وضعتها أنا ؟ لا. أما التي نقلتُ فلم احسبها.

— وأيها أحبُّ إليك ؟

— لربما كتابي « المرايا المحرقة ».

فيقول الملك:

— و « الاسطرلاب الكروي » ؟ اما تحبه ؟ و « الجزء الذي لا يتجزأ » ؟

فتتهلل عينا المريض:

— حقاً يعجبك هذا الكتاب، يا مولاي ؟

فيؤكد الملك بهزة رأس، ويقول:

— رائع !

فيستطرد ابن لوقا:

— وأنا أحبه. لربما كان لموضوعه يوماً أن يضج.

ويسأل الملك:

— ما تقول بمؤلفك « شكوك كتاب إقليدس » ؟
رحت فيه تستدرك ما فات أبا الهندسة.

— إنه جيّد. ولكن إقليدس عظيم.

— تصطنع التواضع، يا ابن لوقا، ويردّدون، في بغداد،
أنك أعلم علماء العصر.

— في بغداد ! انهم طيبون. يلجّ بي إلى عهدهم خنين،
فارجع شاباً. ولكن هل تعرف، يا مولاي، انني مرتاح
الضمير لأمر: انني عرّفت تلامذتي إلى نفر من الاغارقة

اعتبرُهم أساتذتي. مَنْ نقلُهم إلى العربية يُحرِّكون العقل.

فيقول الملك:

— من تعني ؟ ارستارخوس واتوليكس ؟

— ولم لا تذكر هيسكليس وديافنتوس وثيودوسيوس
وهيرون ؟

فيسأل الملك ؟

— وأيّهم تؤثر ؟

— أؤثر ثيودوسيوس. هو الذي عنه نقلتُ كتاب
« الكرة ».

فيتعابث الملك:

— هذا، اعرف لماذا تحبُّه. إنه مواطنك. من طرابلس
هو، من لبنان.

ويكون الطبيب الشيخ، في أثناء تلك الالتفاتة الملكية،
قد نسيَ ثِقْلَ المرض عليه واندفع يتكلم. الا أنَّ تعباً عاوده،
فاذا هو يلوي رأسه، فيلتقاه سنحاريب.

— أرجعني كما كنت.

واذا يستعيد وَضْعَ النَّائِم:

— يبدو، يا مولاي، انني سأموت... لا تحزن كثيراً.

تلاميذُ المعلم هم دائماً خيرٌ منه. والا لما كان معلماً.
ولكنّ لي اليك رجاء: ان تبعث إلي بعلبك، مَسِقْطَ رأسي،
بنسخة من كلّ كتاب لي. اختر لها رسولاً أميناً، وليقل
لأهل المدينة الجميلة إنني قضيت عمري أحلم بالعودة إلى
لبنان.

وكانت « لبنان » آخر كلمة لفظها قسطا بن لوقا
البعليكي، الطبيبُ والفيلسوف والفلكي والمؤرخ والعالم
بالهندسة والموسيقى. ذاك الذي سيعتبرونه « اكبرَ منطقيّ
في لغة العرب »، ويقول فيه ابنُ القفطي « إنه افضلُ من
صنّف كتاباً ».

أما سنحاريب فسيبني له ضريحاً بقبة ولا أجمل،
وسيكرمون قبره، كما يقول عبيدُ الله بن جبرائيل،
« كأكرام قبور الملوك ورؤساء الشرائع ».

وقول ابن تلات قسرة

هذا هو يخرق حقل سنبل، ووراءه رتل من اولاد
مبشرين.

ومن بعيد يصرخُ بهم فاطور:
— هاي... يا أولاد الشر، خربتم الزرع!
— سيهجم علينا، يقول أحد الأولاد. الا تنظرون إلى
عصاه؟..

— صحيح؟ يجيب هو. لماذا؟

— ندوس الزرع، نُميت الزرع.

— بالاحرى نفرُّقه بعضه عن بعض. يصبح أقوى. « أنا
جئت لأفرِّق ».

ويسكت الولد ناقلٌ غضب الناطور. وهناك في البعيد
يسكت الناطور. تراهما سمعا الكلمة التي سيتفوه بها بعد
عشرين عاماً، مخاطباً من سيكونون قد عرفوه وعرفوا من
هو ؟

ويمشي... ويمشون...

الحقلُ الذهبيُّ يغدو أجمل، وقد انطبعت عليه شُقرةُ
شعره الرجوليِّ الأجم.
ويعد عنهم كثيراً.

وما هي حتى يلتفت اليهم ويصيح بملء صوته:
— من منكم يذهب إلى القرية يجلبُ لنا مأكلًا ؟

واذا الجواب من أفواه الجميع:
— أنا.

لكم كان بوذه أن يقولها واحدٌ منهم، لا أكثر، هذه
الأنا التي لا تأبه الا للمأكل...

ها هو الآن على حافة بشر.

لا أحدٌ على هذه البشر.

لكن قلبه يطير في الغد، في السنوات البعيدات، يوم
يكون على البئر هناك صبيةً بعمره أو أقل.

— اسقيني. أنا سأسقيك من ماء عجب. من شربة لا
يعطش.

— تقولها؟!... أو أنت أكبر من النبي الذي أعطانا
هذي البئر؟

ويكشف لها أسراراً.

فتهلع.

— ويحي ! يعرف ما لا يعرفه إلا الله.

— ومن قال لك إن الله لا ينزل إلى الأرض؟

— ينزل نعم، ولكن لا ليسكن بيننا.

— بلى، يا حلوة. الناس طيبون أصلاً، وإن هم ضلّوا

فإلى وقت. والله لا يحب السُّكنى إلا مع خلّاق يديه.

— أنت هو.

— اسكتي.

قالها لأنه كان لا يزال كآبن ثلاث عشرة.

وتطير صوب القرية:

— التقيته. صدقوني. التقيت الله.

هذا فيما يكون الاولاد قد جاؤوا بخبز وعسل.
ويتحلقون. أمّا هو فيظل بعيداً.

— لماذا لا تأكل ؟

— كانت هنا أختٌ ملائكة. تبادلنا القول. لم أبقَ
بحاجةٍ إلى مأكّل.

ذات يوم يدنو منه أحدُ الاولاد:

— رفاقي، يقول، أنفقوا في السوق أكثر مما ينبغي.

— وأنت تُحبّ المال أكثر مما ينبغي. يجيء يومٌ
تبيعي.

وتتجهّم وجوهُ الاولاد:

— هو ؟! نقتله إن فعل.

لكن الولد المعنّي بقي خارج تفكيرهم. راح يضحك.
وبعد أن شكّ قليلاً رفع عينيه:
— لربما كان طريفاً أن أبيعك...

ابنُ الثلاث عشرة في الناصرة الآن.

أمّه مقتعدةٌ درجاً على باب بيتها تتشمس وتغني، وهو
مُرْتَمٍ على ظهره ورأسه في حضنها.

— أمّي، هذا الجبل الذي فوق يُعجبني.

— لبنان !

— نعم أُحبه لبنان. أتصورنا ذاتَ غدٍ أنتِ وأنا في واحدةٍ من قراه هناك. اسمها، يا ربّ، ما اسمُها ؟... مانا... سانا... قانا... شيء كهذا.

« ويكون أن تطلبي مني تحويلَ عنصرٍ إلى عنصرٍ آخر. ماء، مثلاً، إلى خمر.

» وارضض.

« كَأني لست أنا الذي يقدر.

» لكنك تُلحفين.

« كيف تعرفين، يا أمّ، أَنني أقدر ؟

» وتقولين لي:

« — وحدي أنا أعرف. أما أنا التي اليها جاء ملاك العليّ وبشرها بك ؟

« عليّ انني أُصير. وأُخاطبكِ غيرَ رافعِ كلفة. بيرودة. لا « يا أمّي » وانما بشيءٍ من جفاف.

« — لن افعل، أقول، لقد تقرّر، فوق في السماء، بيننا نحن الثلاثة، ابي والروح وأنا، أن تكونَ الساعةُ غيرَ هذه الساعة.

« سوى أنك تصرّخين:

« — انتم قررتم هذا. أنا، لا. أطلب منك أن تخرب موعد الساعة.

» وأخربه.

« لماذا أفعل ؟ الأنني أُحبّك أكثر من الكلمة المكتوبة ؟
الآن الله، من أجل الانسان، يعمل ما لم يكن مرّ ولا يبال
الله ؟ ».

وتغني مريم مداعبةً شعره فيما تكون ثقلت منه الجفون:
— نم، يا حبيبي، نم.

« ما اجمل ما به تحلم ».

ويستيقظ:

— تعرفين، يا أمّ، نسيت... نسيْتُ أن أخبرك...

— ماذا ؟

— إئنني بعد أن أكون زرت لبنانِ اتبدّل آخر.

« يكون رفاقي الاولاد قد ذهبوا معي إلى هناك وهم لا
يعرفون. بعد أن اجترَحَ الاعجوبة هناك، كما تطلبين،
يصبحون يعرفون.

« لكنني سأولد في قانا، ارض لبنان ».

— وبيت لحم ؟

— لا، لن أنساها. سيسمونني يسوع بيت لحم
اليهودية، ومسيح قانا اللبانية.

لأنهم في قانا يكونون قد آمنوا بي.

— نعم، يا حبيبي، نعم.

« ما هي المرة الاولى التي يتعظم فيها اسم لبنان ».

ويردّد هو وقد اخذه نصف اغفاء:

— الّٰي ! الّٰي، يا عروستي، من لبنان !

* * *

يكون الاولاد على بحيرة.

ويجيئهم غريب:

— صدّوقي أنا.

فيقاطعه:

— إذن لا تؤمن بالقيامة.

— نعم لا أؤمن.

— مع أن أعظم شيء أُعطيه الانسان هو أن لا يكفّ

عن وجود. تقبل أنت أن تبقى الأرض موجودة إلى شبه

أبد، وأنت لا ؟

فيؤخذ أحد الاولاد بالكلمة. ويفتح عينيه معجبين:

— ما تُعطينا، يا معلم ؟

لا تسمّني هكذا. ما أنا الا ولدٌ مثلك.

— اعترض انت، هذا شأنك. اما انا فمعلّمي انت. رُدّ

على سؤالي. ما ترى تعطينا ؟ الحياة ؟

— نعم. على أنها أكبر.

— ما هي ؟

— ان لم تكن الحياة ابديةً فهي موتٌ آجل.

ويكمل الولد فرحاً:

— هذا أنا وُلدتُ من جديد.

— صرّت كثير الايمان، ولدتُ من فوق.

قالها ومشى.

ولحقته ابصارهم.

وإذا هو يمشي على البحيرة.

كانوا على البحيرة في مرة اخرى. كانوا يصطادون.

وقال واحدٌ لكثير الايمان:

— هذه العناصر التي تضرب البحيرة سُغرقنا.

— اسكت. سيجيء هو ويسكت العناصر. هي أيضاً أولاد له.

ويجيئه فتیان غلاظ القلوب.

— الملك يظلمنا. ما نعمل ؟

— ارشقوه بأشع الاسماء. وحده الظلم معاداة الله.

— لا نجرؤ. يقتلنا.

— وأنا، ألا يقتلني ؟

— لكنك انت لم تجرؤ على قول كلمة تُغضبه.

— اسمعوا. اذهبوا إلى الملك وقولوا له إنني سميتُه الشعب.

ويلتفتون بعض إلى بعض:

— حقاً تفوه بها ؟

وتأخذ جباههم في التسامي.

ويقول واحد:

— نعم منذ أن سمعناه صرنا بمستوى الشمس. أحراراً.

— من أنت ؟ قال له شيخ، حقاً أنت الله.

— تماماً كما قلت.

ويهرب الشيخ مذعوراً.

ويملاً الدنيا صراخاً:

— تعالوا واسمعوا، رأيت ولداً يجذف. اقتلوه.

ذات صباح، وهو نائم، كعادته، على درج بيتهم،
ورأسه في حضن أمه، يأخذ في الدردشة:

— رأيتني، يا أم، امام خشبتين كبيرتين. ودُعيت إلى
حملهما.

— كل يوم تحمل الخشب.

— هذه المرة كانت الخشبَتان ثقيلتين. وقعتُ تحتهما.

— لا تقل.

— وفوق، على الجبل، نُصِبَتَا بشكلٍ غريب: الواحدة
فوق الأخرى وكأنها ذراعان للأخرى. وصعدتُ عليهما.
— لتفعلَ ماذا؟

— لأرى البشرية كلها، والطبيعة والكواكب، والنجوم.
وأنقذ الجميع.

« ما أجمل ما عملت. لكن شوكة وخزنتي في جنبي ».

وتسأله أمه لهيفة:

— هل وجعتُ؟

— وجعتُ. الا أن عينيك وقعتا على الجرح.

— عيناى ؟

— كانت الدنيا متجمعة فيهما. وعلى ابصارك تطيرُ
الشعوبُ في شبه صلاة... وتجيء الي... لربما بسبب كل
هذا الحب شُفيت من وخز الشوكة.

قالها ابنُ الثلاث عشرة، فيما كانت تثقلُ جفونهُ.
ونام.

وراحت يدا أمه تداعبان شعراً أشقر.

عَيْنَا إِلْتَا

كانت الهواجس قد قَلَبَتْ إِيْلَتَا طوال الليل. فما ان
تدحرجت أُولَى أضواء الفجر على شَبَّاكها حتى نفضت
عنها الغطاء وتجلبت بمعطفٍ من حرير يُجَرَّر، ثم شدّت
شريطة عريضة، مدلاة من السقف، فسُمعت رنّة أقرب إلى
الخشيش.

ودخلت عبدةٌ نوميديّة.

— أعينيني... يجب أن أحضر جلسة الشيوخ...
تسريحة شعري لا تهمني كثيراً.
« سيري الشيوخ أننا لن نسكت... أعرق الناس في

السياسة، هؤلاء الصيادنة. ومع هذا مراسهم صعب .»

والى العبد:

— هل استيقظ أخي ؟

— مولاي لم ينم في القصر. ولقد أرسل، باكراً، في طلب وثيقة.

— كفى سأكمل الباقي. أحضري طعامي إلى هنا.

إيلنا الآن وحدها في الحجرة. تنقل ابصارها من سريرها العالي، القائم على عمودين من ذهب، إلى الحائط البحري، حيث تمثال جدّها إيتوبعل — قُرْم السياسة الصيدونية في عهده — فتذكر كلمة مأثورة عنه في الشيوخ: « إنهم دُمى بين يديّ ». ولقد دُعي اخوها باسم الجدّ تيمناً. أفتراه هو أيضاً سيلهو بهم يوماً ؟

لقد سمعته أمس يهتّد. فهل تكون فاتحة عهد يحطّم فيه السياسي الشاب شوكة المجلس المشاكس، ام انه سيسقط بضربة خنجر من شيخ مقهور ؟

انها لن تكتفي بيث الارصاد والتّبع لحماية اخيها، زين النخبة الصيدونية. ستكون هي في الندوة ترعاه. ستدس خنجرين في صدرها ولن يجرؤ أحد على تفتيش سليله ريهام حفيده إيتوبعل. ولكن هل يكفي كل هذا ؟ كل

واحدة من أدوات الزينة التي أمامها تلتصع الآن تودُّ، هي أيضاً، لو تكون سلاحاً في يدي إيلتّا: اصبغُ الحمرة المرصع بالفيروز يمكنها ان تُرشق به. ميلُ المكحلة قد يُصبح أفعَل من خنجر. أما المرأة الفضيّة المغطّية نصف الحائط — هديّة أمّها منذ خرجت إلى أوّل حفلة — فتعرف، مقدّماً، انها لن تتقل من مكانها لثرمي، من رواق الندوة العالي، على زمرة المتأمّرين على ايتوبعل. وتمضي إيلتّا منقلّة طرفها من الطست والابريق المصنوعين من ذهب خالص، إلى مكايي الشعر ومكبس الاهداب، إلى مزهريات المرمر مؤنسات الزوايا. وأخيراً تنتقي من كلّ ذلك ما صَغُر حجماً: علبة البودرة تشج بها رأساً عنيداً.

إيلتّا الآن ارتدت ثوبها الأصفر المطعج، وراحت ترفعه بيدها تختبر جمال انجراره على الرخام، فيما ستكون مرتقية أدراج الندوة. أما من حلاها فلم تختّر سوى دبّوس ينتهي بعنقود من السفير شكته في شعرها، كما زينت صدرها الضامر، وسط تدفّاق الحرير، ببضع وردات بيض احداهنّ سوداء خمريّة.

وعندما دخلت الخادم تحمل الطعام على طبق فضّي، قالت: « لا أظنّني جائعة... عودي بكل هذا... عذراً ».

واغتنت العبدة الفرصة:

«لأنت أجمل من الجمال.

«تحكين بعل صيدون أناقة

«الا أن لك عذوبة كانسيدال الضوء على قمم لبنان».

فابتسمت إيلتًا تقول:

— منذ متى حفظتِ هذا الشعر؟

— علّمني، طوال الأسبوع، واحد تدوسين وجوده كل

يوم.

شارع الكبيريم مديد الطول، يبدأ من قصر آل ريهام على المرفأ لينتهي عند ندوة الشيوخ في أقصى الشرق. وهو مبلط يطق تحت سنايك الخيل. فراحت مركبة إيلتًا تجتازه بسرعة غير متوقفة الا لتحني رأسها عند هيكل بعل شميم الذي كان يغالب السحب بقبابه الثماني الموزعة النقوش على جلال. حتى اذا بلغت هيكل ملقرت، إله الحرب، تركت مركبتها وولجت بوابته الحديدية، المنفرجة إلى ربعا وسط حائط من المرمر الأسود الساطي.

لم تبين شيئاً في داخل الهيكل، لوفرة النور الذي كان ينهك عينيها. حتى اذا ارتاح طرفها قليلاً بصرت باخيها

جائياً يصلي. وقبل ان يرفع الشاب طرفه إلى العلاء، تكون
هي قد قفزت إلى الخارج تقول للسائق:
— طرّا !

إلا أن أخاها سمع أحد افراسهم يصهل في النهايات من
شارع الكبيريم. فسأل فقيراً مصرياً جالساً على الرتاج:
— أهى أختي التي مرّت ؟
— نعم، يا سيدي.

— ولكن هل تعرفها انت ؟
— لا يجهلها إلا الشرّ والبخل...
فيضحك له ويُجزل العطاء.

انعقدت الندوة باكراً للتناقش في مخصصات الجيش.
وكان ايتوبعل يرتقي ان تُضاعَف الاعتمادات الحربية، بعد
أن راح قائد مغامر يُوطد مملكة على حدود صيدون.
طال النقاش في غير طائل: المجلس يغار على
الخزينة... وايتوبعل يقول بتقوية الجيش، مهما كلفت من
باهظة الضرائب.

ضرائب ويقرّها مجلس الاغنياء ؟ انها ستصيب الكتل
المالية التي يمثلون. كان لا بد ان يجازف برأسه من
سيعاندهم.

ويكون الكلام مجدداً لا يتوبعل :

— لن أُلقي خطاباً، ايها السادة. إن هو إلا تحذير. على تخومكم شعب لا جيش وحسب، ولا قواد مجازفون. شعب ينسوته واطفاله وهياكله وقبورهم. يجب قتل المسخ قبل أن يكبر ويقيم مُلكاً ضخماً تغدو بلادكم بضعة من ارضه. ثرواؤنا او بلادنا، فاختاروا !

فقاطعه احدهم:

— لن نصل إلى هذا.

— مَنْ قال ؟ وعلى حَدِّ السيف سقطت مدُن الجوار. الحلّ ؟ ليس في ما تعودتم من نقاش. القضية اكثر من تلبيط شارع، شراء رياش لقصر، نذب شخص إلى زيارة دولة، مما تؤجلون او تُقرون.

« سنفتح صناديقنا أو تنهزم صيدون ».

— أو تريد أن نؤلب الشعب علينا بفرض الفرائض ؟

— لن نؤلب سوى جيوبنا. ضرائب على الثروات وتنحل العقدة.

— القُرم دوماً علينا ؟ أو ما غيرنا في هذه المملكة ؟

— كلا، والدولة بأسرها موقوفة على خدمتنا، مسخرة لمصالحنا، نحن الأغنياء وممثلي الأغنياء ».

قال، فَعَلَتِ الجلبة في كل مكان:
— اسكِتوه.

— نطلب اعتذاراً.

— لقد مسَّ حرمة الندوة.

— أطرده.

كان قد تحمّلهم، حتى اذا سمع « اطرده »، جحظت
عيناه وانتفخت أوداجه وضحك ضحكةً مُرّةً رابعة.

— تطردوني ؟ انكم لتحملون انفسكم ما لا تطيق.

— الأمر منوطٌ بما هو اعظم منكم. منوط بالدستور.
والدستور في عهدة الكبيريم. والكبيريم، جَلّ جلالهم،
ممثّلون بالكاهن الاكبر وبالشعب ذي الحسّ الذي لا
يخطئ.

« ان انا اذعْتُ على الشعب تفاصيل نقاشنا، افتظنون
انكم ستخرجون من هنا ؟

فأجاب أحدهم ببرودة:

— أما أنا فأخرج.

فردّ ايتوبعل:

— نعم، ولكن ممزقاً بالنواجذ والأضراس.

كان النقاش قد بلغ الذروة عندما قفزت إيلتا من عربتها،
ترتقي أدراج الندوة، مجررة ثوبها الأصفر الأنيق. فراحت
الابراج الرهيبة والشبايك المتشامخة من قصر الأغنياء
تتناقض وعدوبة خطواتها الخاطفة. ولكن غنى الثوب
وجمال تسريحة الشعر انسجما مع أناقة الممرات الرخامية
المديدة، والقباب المتماوجة المشيقة، وتمائل قاهري
الاوقيانوس، والآنية المتعالية بقدودها وبخورها تعالي روح
الأمة صوبَ المعبد و صوب الكبيريم.

إجتازت إيلتا الممر تستنفذ الزمن، حتى اذا قُرُبَتْ من
قاعة الاجتماع سمعت صوت أخيها يهّدد. وعند دخولها
كان احدهم ييصق قلة حيائه في وجه ايتوبعل:
— كلب، ابن زنى.

وأسقط في يد الشاب، وهو لم يكن يتوقع أن تتسع
ندوة الأغنياء لشتيمة، والتفت إلى أعضاء المجلس، واحداً
واحداً، يفتش عمّن يزود عن قدس المكان، فاذا هم جميعاً
سكوت.

— أتوافقون ؟!

فلم يجيبوا.

سوى أن صوتاً رنّ من فوق.

— لا، لا نوافق.

التفتوا، فاذا هم أمام إيلتّا الجالسة في مقصورة آلهاء،
تُطالعهم بجلال وصمت.

وبعد هنيهة:

— قل لي، يا سيدي، هل شَتَمَكَ أخي؟ ... أجب، إن
الأمر لجلل.

— إفرضي انه فعل.

— أفرضُ ! ما كان العار في أُسرتنا، ولو فرضاً. شرفاء
نحن أو نحن في القبور. لو أنَّ أخي تفوّه بشتيمة أو تعرّض
لِعِرض، لغرِزْتُ في صدره هذا.

ولمع في يدها خنجِر، فراح الشيوخُ يخرسون زميلهم
المتطاول، وبكى بعضهم وصفق الكثيرون. فاكملت:

— لقد سكت أخي، لا لعجز، ولكنه تهَيَّب الكبيريم.
نحن أبداً في حضرة الآلهة. أُسرتنا، منذ ألف سنة، في هذه
النُدوة، ولكن لا لتلطّخها بعار. قلتُ لأخي انه كلب. لو
انه ردّ عليك بمثلها لصار كلباً حقاً. ما كان يدافع عنه
قضية مقدسة، حمايةُ صيدون !

قالت « صيدون » بلهجة من الوقار جمّدت الدم في
العروق وجعلت الرؤوس إلى انحناء.

— وقلت عنه إنه ابن زنى. ما كان أخى هذا.

فمَجَّ الشيخُ آخرَ وقاحةٍ في فمه:

— من يدري؟...

— انتَ. انتَ تدري أنك لا تنطق بالصواب. ولو أنك قلتها صادقاً لما استمرت اذني تسمعك، ولما مستك بأذى، بل لرأيتني جثَّةً هامدة.

. وكان لكلامها وقع الصاعقة، والتفت الجميع بحق إلى الشيخ المتواقع، فاذا به يجمع نفسه وينسحب.

وحولت إيلتًا بصرها إلى كبير الشيوخ:

— عذراً، يا مولاي، أهين آل ريهام فدفعتُ عنهم ولم أهين أحداً. خدمات اهلي جرأتني على خرق قدسات الندوة التي أسهموا في مجدها. عذراً مرةً أخرى.

استؤنفت الجلسة كأن شيئاً لم يكن. وراحت عينا إيلتًا من فوق ترعيانها بعظمةٍ وعدوبة، مما خلع عليها مهابةً لا توصف.

لأن إيلتًا تحترم الحق، ذكرتهم بأن عليهم ان يحترموه. ففعلوا.

وأقرت الندوة فرضَ ضرائبٍ على الثروات، ومضاعفةً مخصصات الجيش والاسطول، وإقامة سور آخر لصيدون.

وعندما رجعت مركبة آل ريهام تطلق في شارع
الكبير، كان ايتوبعل واخته في داخلها يغتمان صمت
الظفر، فيما الجمهور المتجمع على الأرصفة يهتف لهما
ويصفق.

أُفْسِرْ لَهَا قِرطاجَة !

كانا في تلك الأمسية يتمشيان على سيف البحر،
والبحر هائج.

الا أن الدنيا صحوٌ بهي الشفق، محروّر، يجذب النظر
ويخلع على قلبي العاشقين شعورَ دِفء.

— لماذا، يا حبيبي، لماذا اكتمك سِرّاً لم يبق لي عليه
صبر ؟ قالت الفتاة.

— سِرّاً ! أو بيننا اسرار ؟

« أنلبا » خطيبة « ميرتا ». منذ وُلِدَتْ تعاهد أهلوهـم
على ذلك. ويوم كانوا يتلهّون في البيت القِرطاجيين بأنـ

لن يتزوّجها اذا لم تبق جميلة، كانت أمّ « ميرتا » تصرخ:
« لا، لن يكون أجمل من « أنلبا » حتى في صور ! »
وكانت الفتاة حسناء.

عينان سودوان ترصّعانِ وجهاً مشرقاً على بعض طول،
وشعرٌ ليليّ اعتادت أن تشدّه من جميع منابته إلى الوراء
فيكون أجمل إطار لبشرة، وابتسامة شطّرة من صبح، وقد
مشيق يكاد دلّاه يوجع الأفق.

— قولي، قولي ما هذا السرّ ؟

فاجابت:

— أحبُّ أن نعيش في « غادس » على الأقيانوس.

— هذا كلّ شيء ؟

وراح « ميرتا » يقهقه...

هي تعرف انه موسيرٌ من فضل تعنيت، وان يده أبعد ما
تكون عن بخل.

في غادس الجميلة تريد السكنى ؟ في مرشيل، في
صور، في أوفير، على ظهر يختٍ أبيض يجوب جميع
الأوقيانوسات ؟ لماذا لا ؟ انه، لو استطاع، انزل النجمة
إلى عند بابها ثقلها إلى نهايات الكون...

كان يحدثها بشيء من هذا فتطوّقه بذراعيها العاجيتين.

أخيراً قالت:

— ولكنني اخاف ان يحملنك أبوك على الترسُّل
للسياسة. لقد شاخ هو. ومجلس الأغنياء لا بد ان يتمثل
بواحدٍ من بيتكم. أفٍ لها قرطاجة ! ثلاثئة الا واحداً
ما يضير ؟

فكظم الشاب بعضَ غيظ.

فتابعت:

— بوسع مجلس الأغنياء وحده ان يتعهد قرطاجة
وممتلكاتنا عبر البحر.

— ما لنا ولهذا الآن ؟ قال ميرتا. أبي لا يزال قادراً على
تمثيل بيتنا، وأمس عرضوا عليه ان يتولى شافطية البحر.
فاجابت بعصية:

— ما أدري، ما أدري. انتم ابناء برقا لا يُركن اليكم.
عدني بأنه مهما يكن من أمر فلن تزاوَل السياسة، عدني
بأن نعيش عمرنا في غادس على الأوقيانوس.
— عُمَرنا ؟

— نعم. أنا لا أحب قرطاجة.

ما تراها قالت ١٩

نُحِّل إلى الشاب انه لم يسمع كلمة الهول.

ولكن جداراً صفيقاً يبلغ النجم أخذ يعلو بين الحبيين.
« أنا لا أحب قرطاجة... »

تراها قالتها حقاً ؟!

كان يحبها كالتور في عينيه، كطموح أهله إلى فتح
العالم، كأُمّه بالذات، كقرطاجة. اما الآن !...

— أنلبا، أنلبا، صرخ بها، إنك لم تقولي ما قلته.
استردي، استردي طية من الزمن انقضت جدت فيها على
الآلهة. شديها من هوة الدهر وبظافرك مزقيها. انها بشعة.
— أنا أعني ما أقول، يا ميرتا. امس، أنبأتني العرافة بأنني
سأموت شابة في قرطاجة. قرطاجة ! قرطاجة لا أحبها.

وتفرس الشاب في تلك التي كانت حلم عمره، ثم
راحت عيناه تجحطان.

كل ما بينهما انتهى.

انقضت سنون.

و ذات يوم، دخل على ميرتا رفيق يسأله أن يقوم إلى
قرب أنلبا المصدورة.

— لا ! قال ميرتا.

— ولكنها تنازع...

— قلتُ: لا.

— لربما كنتَ تضيّع وقتاً ستبكيه غداً بدموع من دم:
لم يزل لها من العمر بعضُ هُنِيهات.

فاجاب ميرتا:

— اما هنيهاتي انا فقد نفدت منذ زمن بعيد.

وقهقه.

قهقه كثيراً.

كان قد جُنّ.

بيد أنه كان لا يزال يملك لفتة اعتزاز يُسرّحها على
أسوار قرطاجة الملائكة المتشامخة.

بَيْتِي ذَاكَ الْغَدَاةُ الشَّقَرُ

لم يكن لسيدرا من أصدقاء سوى منجيرة قصب، رفيقة
عمر، وقلب يخفق له مَبْزُغان الشمس.

يُفِيق، الصبح، من حُلُم لذيذ:

— أيّ غصن، يقول، لم تقلقه الحاني ؟ أيّ نجمة لم
تُزِر دارتي تأخذ التماعاً وصفاء زُرقة ؟

وَيَنسَلّ من فراشه، ناسياً ان يتناول فطوره، علّه يسرق
من بلبل عابر، أو من غمامة رسول، واحدةً من أبكار النغم
لا تزال مُفْلِتَةً في الطبيعة.

وذاث يوم، وقد تجمّعت على بثّ منجيرته الأربعةُ

الآفاق، وتنزل الجلدُ يسيراً، وراحت موجاتٌ من النهر عند
المصبّ تتوقف وتُصغي، طيّب لمنجيرته شيخٌ صَجِب
الدهر وقال:

— أَلْحائِكَ، أيها العازف الإلهي، ستوقظ يوماً بِلَتَيْسَى.
— بِلَتَيْسَى ! قال الفتى، يُعجبني هذا الاسم، فَمَنْ
تكون ؟

فيجيب الشيخ:

— إنها حسناءُ الغدائر الشُّقر، حَوَالَى أول الزمن تحوّلت
إلى نبعة ماء، ضوءٍ وذهب، وهي لا تعود سيرتها البشريّة
إلا مرّةً كلّ ألف عام.

فسأل سيّدار:

— وعُمُرُها ؟

— إطمئنّ بالأُ، إنها لمّا تتخطّ الطفولة بعد. كُتِبَ لها
أن تبقى موصولةً النضارة، ليقى الريحُ يولد على أصابعها،
والنجومُ تنزل عليها دبائيس تشكُّها في النول الذي عليه
يحاك عمرُ الورود.

فقهقه الفتى ملء فمه، وعاد يُرَقِّص المنجيرة.

لكن القصة ما لبثت أن راحت تحفر في خياله.

وعندما تعب القصب وكفّ عن بثّ، وأخذت الآفاق

تراجع، والجلد يرتفع إلى مكانه، وموجاتُ النهر عند
المصب تُكمل سِيرها صوب الخضم، شعرتِ الدنيا ان
بعضاً من غيمة ذكاء راح يمدُّ خيوطه على مخيلة العازف
الضليل.

وفي اليوم التالي قصد سيدرا إلى المكان نفسه، علّه
يحظى بقاء الشيخ.

ولكن ما من أحد.

سوى أن الشمس كانت في منتصف القبة، وحورُ
الضفة في سكون عجب، فلا يسوسة تكبُّ الشذا ولا ورقة
تقلق، وكأنما النياسم لجأت إلى خدرها وخلت الأرض
لسلطان الحر.

لا، لا عهد لصديقه الطبيعة بهذا الوجوم. قال:
— سأنفخ، في منجيرتي، لحناً، رطباً هذه المرة، أسلّ
به روح النار أتى وجدت، حتى ليبرد الوجود ويرتعش
وتطلب الشمس معطفاً، ومتى أضيئت المصاييح في الليل
سأسمع لها، من شدة البرد، تأوهاً وصريف أسنان.

قال، واخذت أنامله تتنقل على النقاط السود من
منجيرته قبل أن تلامس شفتها. وعندما ترنح رأسه بقبول،
وهتف القصب بين يديه: « هات »، لم يبق عصفور في

الأرض الا سكت، مدركاً أن جديداً وُلد في النغم.
روح الندى تُقبل معتمرةً بمنديلٍ أبيض، ولينُ القدود
يتحطّم في الجوّ فاضحاً سرّ الميس. الينابيع تؤوه، ونبضاتُ
الماوية في كل يلسانة وفلة ونارديّة تشيع. فكأنما الكون
بأسره وردةً بيضاء تُعلن نفسها ثم تزول ثم تولد من جديد
ومن جديد تزول. غيبُ زهر ينكشف لكل حصاة، الأرض
جميعاً تهتزّ ولا اهتزاز الورق لهبوب النسيم.
— هذا انا بلتيسى.

فذهل للرؤيا.

— من ؟!

— بلتيسى، حسناء الغدائر الشقر. وُلدتُ خاطرةً في
البال، نضرةً لا أيس. وهكذا سَأبقى أَتَنَقَّلُ شَفَافَةً في داخل
العقول أشهد واحداً يَنَقَحُ ويلد.

« سواي يحظى بالنتائج وأنا أعايش المبدأ. يعرفون
المظاهر، واتغلغل في تضاعيف الشيء بذاته.

« صحبتُ العقل في جبل وصيدون وعلى ضفاف
الغانج والفرات والنيل. صحبتُهُ في أثينة ورومة. شربتُ من
كأسه وسكرت. آمنتُ معه وسعيتُ ووجدت.

« ولكن أجمل كأس من كؤوس الحب التي تبادلتها مع

العقل كانت لنا ونحن في صيدون: كان العقل قبلها يعي
الشيء فينقله اليه، تماماً كما هو. كان بدائياً أشبه بإحدى
الحواس. الأشياء الخضراء في الطبيعة تنعكس عليه أشياء
خضراء، والرجل رجلاً، والجميل جميلاً. ولكنه في صيدون
سما وجاوز ذاته. يا للرحلة أجمل الرحلات. انها هذه
المرّة إلى فوق. من الأشياء الخضراء سللنا الانخضار، ومن
الرجل الرجولة، ومن الجميل الجمال.

« تخطينا المحسوس وبتنا نجرّد.

« والمغلق، انفتح لنا المُغلق على مصراعيه: عرفنا النار
والمعدن، قلنا للتراب: لمجرّد ما انت في الوجود تكون
قادراً على النبات، سوف تمضي صوب مطلق قدرة.
سنعضدك، أيتها الطبيعة، في عملك المُحيي. نستنبط
المحراث يشق الأرض ويرغمها على عطاء فوق العطاء.
ولن ندع الفرد يعمل لكل ما يحتاج اليه والا ظل عمله
بدائية وتلمساً. سنؤمن للجماعة ائتلافاً فيختص كل بواحد
من ضروب النشاط. بعدنا سيفقد الانسان اجتماعياً،
سنمكّن الناس من التجمّع والثبات، انهم رُحّل، سنجعلهم
حضراً.

« ورفعنا مقدور اليد إلى قوّة البناء بالحجر.

« وصحبتُ العقل يوم قال للبحر: أنزل اليك على جذع
أرزة، أجوبك من قطبٍ إلى قطب، حتى إذا أوفينا على شفا
الأرض زرتك، أيها البحر، وحزرت ما تساوي... لا، ما
انت لا محدوداً. امسِ كنته. اما اليوم فقد افرغتك من
الوَهْتِك وجعلتك في يدي وسيلة ليس إلا تُقيمُ علائقَ
الحبِّ بين قارة وقارة.

« ورحنا، العقل وأنا، نجوس الفلك نحصيه كما تُحصى
الاصابع. فاذا هنالك نجمةٌ ثابتة... كشفنا انها دوماً صوب
الشمال، فشككناها نُقْطةً في كتابنا البحري، نقطة هُديٍ
نستعينها في تصويب سفننا يوم نقومُ بأسفارنا الشجاعة.

« ثم رافقتُ العقل نجزيء الشيء إلى وحداته الاخيرة.
نقول لللفظة: انت العمارة سوف نحلك إلى حجارة. واذا
بين أيدينا الصوت الذي لا يتجزأ، فجعلنا له رمزاً في
الكتابة وسميناه « الحرف ». واكتشفنا ان الفاظ الانسان
جميعاً مكوّنة من بضعةٍ وعشرين صوتاً، فلا حاجة بعد إلى
رسم الخواطر ولا إلى الرمز بما لا يُعدّ. قبضةً من الحروف
تُغني. اداةٌ اوجدناها، مركبٌ آخر يُقلُّ الخاطرة عبر المكان
وعبر الزمان، ولن تُعدّل فيه العصور.

« وفي صيدون تعرّفتُ إلى فتى جميل بادلته ما هو فوق

الحب، وعلمني سرّ الاشياء، سرّاً لا يزيد عليه احد.
» انه موخوس، موخوس الصيدوني.

» كنا نجري على شاطئ البحر، قبالة جون ولا اجمل.
» كان يلعب باصابعه حصاةً ويضحكها مضاحكة
الطفل، ثم يلتفت إليّ ويقول: انظري. هذه هي المادة. ان
لها هي ايضاً هجاءها. ما هي ملأى كما يبدو لك. انها
ذرات، جزيئات من وجود في فراغ ولا أهول. وتدور
وتدور وتدور.

» لم أفهم يومئذ ما راح يكشفه لسذاجتي، ولكنني
اليوم، وقد استيقظتُ على أرقى اوطان الانسان، وشهدتُ
» القصة العاقلة » تُسخر لسلطانها المادة والكون، تذكرتُ
حبيبي الصيدوني، ووددت التنقيب عن قبره المجهول أحلُّ
عليه صفائر شعري الذهبي، وبها أظلله وأقيه من حر .
— وأنا ؟! يسألها سيدارا لهيفاً.

— أنت ؟ أنت من حفدتَه، ايها العازف العبقري، ولو
لم يتأت لك اللحن كما دانت له هو اسرار الطبيعة لما
ايقظتني من سبات الحجر، حيث عشتُ بعضاً من دهر،
نبعة ماء، ضوءٍ وذهب.

— ولكن ما لنا وكلّ هذا. الآن من انتِ يا بلتيسي ؟
قولي قولي وحياةِ هذه الضفائر الشقر.

فتنهّدت ثم أجابت:

— حسناء لعوب، أحببتُ الطبيعة واحبّبتني، فاتفقنا على
أن لا أعرف حياة البشر: أبقى إلى الأبد في الوجود، طفلةً
أو أزيد، على أن أتجلّى للناظر نبعة ماء تدفّاقها هذه الغدائر.

— أو ما من أمل بأن تبقى كما أنتِ الآن، بشراً وتكبري
راكضة قليلاً في العمر، نيساناً، نيسانين، ثلاثة ؟

فأدركت بلتيسي ما يلمع اليه، وحزّة الألم في قلبه،
فرنت إليه بكل ما في شقرتها من دلال، وقالت:

— حرامٌ عليّ أن أكبر، والآن لم تبق في الوجود أصابعٌ
عليها يولد الربيع، وتنزل النجوم دبائيس أشكها في النول
الذي عليه يحاك عُمرُ الورود. ولكنني، كلّما سمعتك ترفع
البرودة في النغم إلى قوة الحرارة، مُشيعاً في الأشياء روحاً
لم يعرفه الفنّ، حتى لأستطيك أكثر من نبعة ماء، ضوءٍ
وذهب، وأحبك أكثر من ذاتي، فإنني، وحياة عينيك، أعودُ
طفلةً شقراء تكرر على الأرض لتعيش في نعماتك وتشهد
الأربعة الآفاق تتجمّع على بثّ منجيرة، والجلد يتنزل
يسيراً، وموحاتٍ من النهر عند المصبّ تتوقف وتُصغي.

إلى آخره

قُبِلَ الحرب الكونية الثانية، كان لقنصل غربي معتمد
لدى لبنان ولد جميل أشقر لما يبلغ التاسعة. ففكر بأن
يعلّمه لغة لبنان إلى جنب الانكليزية والفرنسية. وكان ذلك
عقب ان حدثوه عن مربية نمساوية من مواليد لبنان طارت
لها شهرة في الكفاءة والتهذيب.

فاستقدمتها زوجته تعرض عليها الأمر، فاذا هي في
حدود الخامسة والعشرين، فارعة القامة، خضراء العينين
نجلأوهما، ذات بشرة بيضاء بيضاء.

فمازحتها الأم:

— هذا الحُسن وتزاولين التعليم ؟!

فأجابت:

— والدي كان أستاذاً في فينا وأمّي درّست في الجامعة. وكذلك جدّي وأخوه وأخته.

فأطرقت زوجةُ القنصل ثم غيّرت الحديث:

— وكيف أتقنتِ لغةً ساميّةً ؟

فأجابت:

— أمّي لبنانية. ويوم قُتل أبواي في حادث سيارة استقدمني خالّ لي إلى عاصمة لبنان وكنتُ لا أزال طفلة. لم يكن لزوجة القنصل بنت، فشعرت بأن شيئاً يشدّها إلى النمساوية الحسنة.

ألا أنها تهَيّت الحلول محل غائبين يزيدهما العلم جلالاً، فخنقت كلمةً كانت قد مرّت ببالها، ولكنها عوّضت بابتسامة حلوة أشعرت الصبيّة بأنهم سيحبّونها كثيراً في بيت القنصل الغربيّ.

وكان الولد حاضراً.

وما هي حتى دخل القنصل مضطرباً على بعض حزن.

— تعرفين ؟ قال لزوجته. صدر قرارٌ بنقلنا إلى مدريد.

على ان نكون هناك بعد ثلاثة أشهر. حلمنا بأن يدرس
الولد لغة جديدة تبخر.

وهمت المربية الحسنة بان تنسحب.

فاستدركت الأم تقول:

— ومع هذا سيدرس الولد لغة لبنان. ما رأيك، يا
آنستي، لو تبدئين منذ اليوم، منذ الساعة ؟

مرّ يبال النمساوية أن تتردد ولكنها، كما بذهول، قالت:
— لا بأس.

وهمت الأم في أذنها:

— سأفجعك إن صارحتك بأن الولد عديم الميل إلى
درس اللغات.

— لا عليك. كل ما أريد هو ان اعرف أين تكمن
قوته.

— في مادة التاريخ، أجابت الأم. هنا هو البطل البطل.
تاريخ اليونان يرويه لك مع أرقامه، ويُفسّره. وهكذا تاريخ
رومة وأوروبا الحديثة.

بعد هنيهات كانت النمساوية تمشي مع تلميذها تحت
ادواح باسقة من حديقة لا تنتهي.

فبادهت الولد بالانكليزية:

— جميلة هذه الأشجار. تكاد لكبرها تُظن من عهد
حيرام. حيرام ملك لبنان، الذي أرسل إلى سليمان
معمارين يبنون هيكل أورشليم. هذا الضرب من الشجر
يسمى بلغتنا « السنديان ».

— « السنديان »، ردّد الولد، من بعدها. لفظة جميلة !
بلى جميلة !

قال ذلك وهو مسمر إلى عيني المربية الخضراوين
لوزيتين. ثم سأل:

— وكيف تقولون، بلغتكم، شيء أكثر من جميل ؟

فأجابت:

— « رائع »، « رائع ». أُلْفَظُها كُلُّها. العين حرف من
حروفهم يظنونهُ ثَقِيلاً. ولكنهم إذا خَفَّفُوهُ كما هو في
الأصل بدا أعذبَ الحروف. انه حرف غنوج. ألا ترى ؟
عريق هو، فينقي الأصل، سُمع ذات يوم على ضفاف
الأمازون يلفظه الشجعان من بحارة صيدون وصور الذين
بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما
هنالك من قصة تشيل إلى آخر الأرض وتُسميت وتحيي.

— قبل كولومبس؟! عَجِب الولد، حدثيني حديثهم،
إنني أحبُّ التاريخ.

— وأنا أحبه. ولكنني لا أعرف سوى تاريخ لبنان.
فقال:

— لا بأس. ويبدو أن تاريخ لبنان « رائع ».
ولفظها هذه المرّة بلغة المربيّة، فجاءت العينُ غنوجاً
كما ارادت.

فضحك من نفسه ثم أكمل:
— ستناولين الطعام معنا. أوليس كذلك؟ أكيداً
ستسبّيقك أُمي للغداء.
وتلفت إلى الساعة:

— أنظري، انه لا يزال بيننا وبين الظهر ساعتان
طويلتان، فلتكلم على الشجعان من بحارة صور وصيدون،
الذين بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس، إلى ما
هنالك من قصّة تشيل إلى آخر الأرض وثُبتت وتحيي.

انقضى شهران فإذا الولد قد تقدّم في اللغة. كان يعرف
ان يطلب إلى الخادم اللبنانيّة كلّ حاجاته، ولكنه كان أكيداً
لا تغوزه ولا لفظة ليتكلم على بحارة صيدون وصور الذين
بلغوا البرازيل ثلاثة آلاف سنة قبل كولومبس إلى ما هنالك

من قصة تشيل إلى آخر الأرض وُثِّمَت وتحيي.

وطارت للصغير شهرة في لغة لبنان وتاريخه. وكان قناصل الدول المعتمدون لدى حكومة بيروت يستضيفونه ووالديه غير مرة ليستمعوا اليه يتحدث في التاريخ بلغة اللبنانيين الأقحاح.

— بلى، كان يقول، ديودورس الصقلي، المؤرخ الذي قضى شطراً من حياته في قرطاجة، صريح صريح. في المجلد الثاني، الكتاب الخامس، يذكر ان الفينيقيين بنوا دكار قاعدة السنغال الحالية، بين القرنين الثاني عشر والحادي عشر ق. م. وإن إحدى عماراتهم البحرية خرجت من دكار متوغلة في الأطلسي عبر جزائر تدعى اليوم « جزائر الرأس الأخضر »، ويصف ديودورس البلاد التي انتهت اليها العمارة عبر الاوقيانوس. إنه وصف البرازيل لا يقبل شكاً.

ويمضي في التأكيد.

— لدينا أكثر من ذلك. لدينا نصوص مادية. ففي العام ١٨٧٢ عشر فرنسيسكو بنتو، المهندس البرازيلي، وكان يعمل في مناجم كوروجا في بورموراما، على أكثر من عشرين مغارة قديمة استخرج الفينيقيون معادنها منذ

عَشْرَاتِ المِئَاتِ مِنَ السنين. على جُدرانها كان نحو مئة وخمسين كتابة، نقل بتو نسخة عنها إلى بدرو الثاني امبراطور البرازيل. وكان هذا عالِماً يرئس بنفسه « ناديَ الجغرافية والتاريخ »، فبعثوا بها إلى أرنست رنان الذي ترجمها مؤكداً أنها فينيقية.

« وكان أن بدأت الحفريات في هذا الاتجاه، حتى اذا حُلَّ العام ١٩١١ دعت حكومة البرازيل العالمَ النمساويّ لودفيك شوانهاغن إلى إلقاء دروس في بعض جامعاتها. بقي العالم خمسة عشر عاماً يُنقَّب في ولايتي مارانيون وبيباوي، فأنتهى إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات على احتلال الفينيقيين للبرازيل استغرقت فصلاً دراسياً كاملاً.

« وفي كتابه « تاريخ البرازيل القديم » خلاصةٌ لتنقيبات هذا العالم تشفي غليلاً

ويشكُّ النابغة الصغير شيئاً ثم يستطرد:

— انتهى الفينيقيون إلى البرازيل عقب حرب طرواده في الألف الثاني ق. م. ولبثوا فيها ثمانمئة سنة.

« ونحن نعرف أن حيرام وقع مع داود عام ١٠٠٧ معاهدة تعاونٍ على استغلال المستعمرات الفينيقية عبر الأوقيانوس؛ فتقدّم صورُ المأل والخشب وتقدّم اورشليم

اليد العاملة (« ثلاثين ألف رجل » ، تقول المعاهدة) لأن
أجور العمال كانت فاحشة في مملكة صور، بسبب
مستوى العيش.

« وبعد داود تتجدد المعاهدة مع سليمان. ويمضي
المَلِكُ في استثمار بلاد الأنهر الثلاثة: فرودين وأفير وأبير
وهي جميعاً روافد للأمازون.

« وتستمرُّ سُنن الصيادنة ثِقْلُ عمال سليمان حتى وفاة
المَلِك.

« وكانت الرحلة ذهاباً وإياباً تستغرق ما لا يقل عن
ثلاثة أعوام.

« وسنة ٩٥٧ تنشب الحرب بين منفيس وأورشليم.
فيلزم الفينيقيون الحياد. حتى اذا انتصرت مصر وقعت
فينيقية معها معاهدة تُحلّ عمال الفرعون محلّ عمال
سليمان، مقابل اشتراكه في استثمار المستعمرات البرازيلية.

« وهناك يستخرج الفينيقيون للمصريين مادة « السالتر »
المتعملة عندهم في التحنيط. نعرف ذلك من مناجم عُثر
عليها في عهد بدرو الفاريس كابراي مكتشف البرازيل،
أهمها منجم أوباجارا في ولاية سيارا. وفي ولاية باهيا عُثر

على نحو خمسين فرناً فينيقياً وفي ولاية مينا على أكثر من مئتي قرن.

« ويرجح لدفيك شوانهاغن ان الفينيقيين دخلوا الاكوادور وخليج المكسيك. وقد تركوا في هايتي وسان دومنغ آثاراً جمّة.

« اجتاز الفينيقيون نهر الميسيّي في الولايات المتحدة.

« والمؤرخان الأميركيان سكيار وديفس صريلحان في مؤلفاتهما الصادرة عام ١٨٤٨. « ان الفينيقيين، يقولان، دخلوا أميركة الشمالية ». ويدعم هذا الرأي المؤرخ بریتون.

« ويقول شوانهاغن:

« بعد سقوط صور، بيد الاسكندر، عهد المكدونيّ إلى قائده بروتولوماو بالاستيلاء على مستعمرات فينيقية، على أن يساعده الأسرى الصوريون. وصلت العمارة الغازية إلى شواطئ أميركة عام ٣٢٨ ق. م. ولكنها غرقت في مصب ريوبراتا. وعام ١٨٩٨ عثر على كتابة فينيقية تؤكد الحدث. واليك ترجمتها: « عندما كان الاسكندر بنُ

فيليب مَلِكاً على مقدونية أرسل قائده بروتولوماو في بعثة بحرية إلى مستعمرات فينيقية في الأطلسي .»

أين عُثِر على هذه الكتابة ؟ في مونت فيداو، في أميركة ؟ لا، وإنما في مقدونية .»

وهكذا يروح العالم الصغير يقصّ قصة الفتح اللبناني القديم بلغة اهل لبنان معزّزاً اقواله بشواهد واقوال باحثين، ونقوش، وكتبٍ علميّة.

وتراه احياناً يترك متحدثيه إلى مكتبته ليجيئهم بمجلّداتٍ مصوّرة تحتوي على نصوص فينيقية وجدت في البرازيل، ويأخذ في ترجمتها غير ناسٍ ان يقول ان هذه او تلك من كلماتها لم تُفك بعد.

وتنقضي الأشهر الثلاثة.

ويأزف يوم الرحيل.

على المرفأ الآن، القنصل وزوجته وثلاثة صبية.

انهم قلقون لتأخر النمساوية الحسنة.

حتى إذا أطلّت من بعيد حبسوا الدموع.

ويقول القنصل لزوجته:

— لماذا لم نُعطَ أن يكون لنا ولدٌ شاب. لماذا،
لماذا ؟!

فتخفق الزوجة غصّة.

— وأنت أيضاً تفكر هكذا ؟ .

اما الصغير فكان يبدو عازماً.

فهتّت الأم ما يجول بباله، فتقدمت منه وهزّت كتفه
موقظة:

— كن رابط الجأش، ما أنت طفلاً.

وانقضى الوداع ولم تُذرف دمعة.

جميعاً بادلوا النمساوية الحسنة عناقاً طويلاً.

إلا الصغير.

كان يُضمّر لها قُبلة تشيل الى آخر الأرض وتُميت
وتحيي.

فهرست المجلد

فهرست الكتاب

٥	لبنان إن حكى
١٢	قصده قبل أن أكون
١٧	مأساة فيثاغورس
٢٧	أرض الأبطال
٣٥	التي غناها شكسبير
٤٣	سرّ الملكة
٥٠	النفس بعد الموت
٥٥	هوميروس الذي من لبنان
٦١	على عرش رومة
٦٩	قبلة أفروديت
٧٥	يرفع الأرض الى السماء
٨٢	عظيم العظماء
٨٩	يوم زار يسوع لبنان

٩٧	القرنة السوداء
١٠٦	رُنْزَا بَعْل
١١٩	زارنا التاريخ
١٢٦	قلبُ الله
١٣١	ايلولاي
١٣٧	السيف الذي ينتظر
١٤٤	الطائر العجيب
١٥٢	عبدئيل
١٥٩	قنيز الى هنا
١٦٤	على قبر الحبيب
١٧٤	يوم تموت الحرية
١٨١	الذريّ الأوّل
١٨٨	سرّ العصفورة المُتَحِرّة
١٩٧	يوم سقطت تيرون
٢٠٥	مرغيانا
٢١٢	السلام اللبناني
٢٢٠	عشيّة الدم
٢٢٥	معلّمو معلّمي العالم
٢٣٣	قلبها
٢٣٩	مرديا والإسكندر

أفضل مَنْ وضع كتاباً	٢٥٦
...وهو ابن ثلاث عشرة	٢٦٤
عَينَا إيلَتَا	٢٥٧
أفُّ لها قرطاجة !	٢٨٦
بَلْتَيْسَى ذات الغدائر الشقر	٢٩١
إلى آخر الأرض	٢٩٩

